

محمد عبد المنعم خفاجي

فصل في الأصول والوسائل  
عز وجل



مجموعۃ النعم خفاجی

# فضائل فی الزین و الزین

مطبعة النعمانية  
باصلاحه وكمال مستباح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تمهيد

هذه فصول مختلفة كتبها في مناسبات متفاوتة ، وتناولت فيها أطرافاً من البحوث والدراسات الإسلامية والأدبية ، ثم شاء الله أن تجمع في هذا الكتاب ، وأن أقدمها لقراء العربية وأدبائها ؛ ناطقة بمفاخر من تراثنا الإسلامي والعربي القديم والحديث ، متناولة ألواناً من الآراء والأفكار في شتى مسائل الدين والأدب والنقد .  
وإني لأقدمها في استحياء إلى القارئ الكريم ، معترفاً بثقته ، منوهاً بحظفه ورعايته ، سائلاً له من الله المثوبة والتوفيق والسداد .  
وما التوفيق إلا بالله ؟

المؤلف

## المعجزة الخالدة

انبثق النور ، واثبت الفجر ، وبرزت للإنسانية الحاضرة شمس الحرية والعزة والإسلام ، في أعقاب يوم الهجرة الخالد المجيد .

فقد رفع محمد - صلوات الله عليه - بهجرته شعلة الإسلام وضياء منيرة هادية ، فانتصرت شريعة الله والحق والهدى على الوثنية والجلود والطغيان ، وارتفعت منارة التحرير تهدي الضال ، وترشد الحائر ، وتوقظ البشرية من سباتها العميق ، وتؤذن بميلاد عصر جديد ، ينهى عهود الإقطاع والظلام ويسير بالناس إلى رحاب واسعة من النور والنهضة والبعث والمدنية ، وانبعث من قباب مسجد قباء ، الذي أسسه محمد على التقوى ، ومن أروقة المسجد النبوي في المدينة ، أعظم فلسفة إنسانية عرفها التاريخ ، ورددتها الأجيال . . فلسفة لم يكن للحياة عهد بها ، فلسفة القوة والسلام والإخاء : القوة التي تحارب الضعف في جميع مظاهره ، وتعاف التقليد والطغيان ، وتحالف الحرية ، وتحمل المسؤولية ، وترعى الأمانة ، وتوفى بالعهد ، وتؤدى الحقوق ، وتهدف إلى أنبل ما في الحياة من مثل وشعائر وآداب ، وتمشى في النور مرهوبة محبوبة ، عزيزة منيعة .

والسلام الذي لا يعرف الاعتداء ، ويعمل جاهدا على نفي الخوف من الأرض ، وينتظم العالم كله في وحدة قوية تسندها عقيدة نقية طاهرة . والإخاء المبني على دعامه متينة من المحبة والتعاون والمساواة ، والذي وضع محمد أصوله بعد الهجرة : بمواخاته بين الأنصار والمهاجرين ، وبدعوته إلى التعاطف والأخوة بين الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والقوى والضعيف ، والحاكم والمحكوم ؛ الجميع عباد الله . أصبحوا في الإسلام

نعمه الله إخواننا ؛ وقد امتد هذا الإخاء ، فشمع الشعوب والأجناس والعناصر ، حتى أناب الرسول عنه على المدينة بلالاً الفارسي ، وأسندت إلى مهران الفارسي ولاية اليمن ، وعاتب الله رسوله في عمار وسليمان الفارسي وصيب الرومي ، وأذن عمر بلجاعة من الموالي قبل سادات قريش ، وعاد الناس بالإسلام إخواناً في الإنسانية ، مما يتفق وعالمية الرسالة المحمدية ؛ التي هي العماد الأول لكل وحدة .

وبعد أسابيع من هجرة محمد - صلوات الله عليه - انطلق المؤذن يدعو من فوق شرفات المسجد النبوي : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، ثم حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم دعا محمد إلى الصلاة الجامعة ، صلاة الجمعة ، مظهرا لوحدة المسلمين الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، وأعلن وحدة الأمة ، وميلاد الدولة الإسلامية ، في وثيقته السياسية البارعة ، التي حدد فيها موقفه من يهود المدينة ، والتي تعتبر من أهم المعاهدات السياسية في الإسلام : وجاء فيها : « المؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، أمة واحدة من الناس ، وهم موالى بعض دون الناس ، وإن دُمت أمة واحدة يحير عليهم أديانهم ، ولا تجار قريش ولا من نصرها » ، وقرر الرسول حرمة المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعائها لها ، فلا يراق فيها دم ، ولا يعمل فيها سلاح لقتال . وهكذا علت كلمة الله والإسلام ، فزع المسلمون بعد ذل ، ولم يحض غير قليل حتى أصبحوا حكام العالم ، وساسة الدنيا ، وناشري الحرية والحضارة والديمقراطية في الأرض جميعا .

هذه النتائج الجلية ، والآثار الخطيرة ترشد إلى أن الهجرة معجزة  
فه على رسوله، وخاتم أنبيائه ، محمد بن عبدالله، مما بعث عمر على أن يفتح  
بها التاريخ الإسلامى .

إن الهجرة بحق حادث فذ فى حياة العالم، وبدء تحول كبير فى تاريخ  
الشعوب ، ونهاية لكفاح الأجيال فى التحرر من الخوف والعوز والجهل  
والإقطاع والوحشية ؛ وإيدان بانثاق بحر السلام والمساواة والثورى  
والعدالة على الأرض كافة .

ولأنها معجزة من صنع الله جعلها الله نصرا منه ، وآية على رسالة محمد  
وصدق نبوته ، قال : لا تنصروه فقد نصره الله .

فهى بحق معجزة إلهية للرسول العربى، وليست حادثا متميزا يحدث بين  
الحين والحين، ليست مشابهة لهجرة الأنبياء والرسل من قبل، ولا لهجرة الزعماء  
والمفكرين والمصلحين، لأنه لم يكتب لهجرة أحد من الآثار والنتائج الخالدة  
الخطيرة الباقية على وجه الزمان ، ما كتب لهجرة محمد بن عبد الله .

ومن دلائل معجزة الهجرة : نجاة الرسول من الحصار الدقيق الذى فرض  
على داره ليلة الهجرة ، ونجاته من القتل، وما سبق الهجرة من محالقات سياسية  
وعسكرية عقدها الرسول مع أهل المدينة ، وكان مظهرها بيعة العقبة الأولى  
والثانية ، ثم نجاة الرسول من طلب قريش وقتلها وفسادها ونجاته كذلك  
فى الغار وقد وقف على باب المشركون ، يقول فريق : ندخل الغار ، ويقول  
فريق : لا ندخله، وأبو بكر فى داخله يقول : إن أحدم لو نظر إلى قدميه لآنا،  
والى لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنى أخاف عليك يا رسول  
الله ، فلما قتلت هلكت الأمة، وإن تصب اليوم ذهب دين الله ، وينطلق صوت  
الرسول مجيبا لأبى بكر : لا تحزن إن الله معنا ، وما ظنك يا نبي الله نالهما .



ومن تمام المعجزة أن نجى سراقه عن القبض على محمد وصاحبه أو الفتك  
بهما، وقد جعلت قريش لمن يأتي بهما سائرين أو متولين الدية كاملة، وقد كان  
سراقه منهما قاب قوسين أو أدنى، حتى قال سراقه فيما بعد : لقد شعرت عندئذ  
أن قد قدر أن تفوز قضية محمد ، وأخذ سراقه يهتف : أنا سراقه أنظروني  
أكلكم ، فوافقه لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء . تكرر هونه ؛ والتفت محمد  
وأبو بكر إليه ، فاقترب سراقه منهما ، وطلب إلى محمد أن يكتب له كتابا  
يكون آية بينه وبينه ، وهكذا في لحظة واحدة نرى العدو ينقلب صديقا ،  
والمحارب يعود مسالما . وفي هذه اللحظة الزهية التي يعني محمد فيها في  
الصحراء مهاجرا فارا بدينه إلى الله ، اللحظة التي ينقطع فيها كل أمل حتى  
الآمل في النجاة ، يقبل محمد على سراقه ويشره بأن سيأتي عليه يوم يلبس  
فيه سوار كسرى ، ولم يمض أكثر من ستة عشر عاما ، حتى كان سراقه في المدائن  
يلبس سوار عاهل أعظم دولة عرفها التاريخ ، بعد أن كان الجيش الإسلامي  
قد قضى عليها وعلى أكبر معقل للوثنية في العالم ، ولم يلبث بعد ذلك غير قليل  
حتى قضى على نفوذ دولة عظمى كانت قد ألبست المسيحية ثوب الوثنية ،  
وصبت على العالم نارا من الطغيان والاستبداد ، وهي إمبراطورية الروم .  
وهكذا صدقت نبوءة محمد ، وتمت المعجزة ، ودخل المدينة ظافرا منصورا ،  
في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول والثامن والعشرين من يونيو  
عام ٦٢٧ م ، وأصبح محمد الرسول إماما وزعما ، وعاش هاديا إلى الله بإذنه  
وسراجامته ، وأخذ المسلمون يذكرون أياما عصبية ملؤها الكفاح والعذاب  
والتضحيات ، أياما قتل فيها المسلمون وعذب فيها الرسول وعرض عليه الجاه  
والملك والسلطان فأبى ، وقال لعمه : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر

في يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ،  
وقال للمشركين: ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ،  
ولا الملك عليكم ، ولكن الله يبعث إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ،  
وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، فإن تقبلوا  
فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوا على أصبر حتى يحكم الله بيني  
وبينكم وهو خير الحاكمين .

وأى حظ هذا الذى قاله المنصور بالإسلام ، وأى حظ يمكن أن  
ينالوه إذا عملوا بحقيقة الإسلام ! إنه كما قال الرسول الأعظم : « حظ الدنيا  
والآخرة » ، وكفى بذلك حظا عند الله والناس .

## الإسلام

### يضع أصول العدالة الاجتماعية بين الناس

- ١ -

بعث محمد صلوات الله عليه إلى الناس كافة ، ومعه رسالة تضيء ظلمات الحياة ، وشرعية تقضى على الأغلال والعبودية . . وبين يديه دستور خالد يهدي إلى النور والحق والحرية والمساواة والعدالة والإخاء .

ولقد حرر الإسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين في الأرض ، وعما الاستعباد السياسي والاجتماعي ، وقرر مسئولية الحاكم وأنه خادم الشعب وأن لا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله ، وأن أول واجب عليه حماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ، وألغى الألقاب ونظام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس ، فكلهم لأدم ، وآدم من تراب ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح . وحرم الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل ، وجعل لكل فقير حقاً في بيت المال ، فإن لم يكن في بيت مال المسلمين ما يسد حاجت الفقراء ، لحقوقهم يجب أن تؤخذ من أموال

الأغنياء ، التي كره الله كنزها ، وأنذر من يكثرها لإتفاقها في غير مرضاة الله بعذاب شديد : «والذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فيشرهم بعذاب أليم ، يوم يحصى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جياعهم وجنوحهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فأنفقوا ما كنزتم تكفون ، . وفرض الإسلام الخراج والجزية وزكاة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء ، ودعا إلى الورع والزهدي في مال الناس ، وإلى ترك الإسراف في التملك ، لأنه مدعاة للترف والهلاك ، والخروج عن حدود الفضيلة والصفة والدين ، وأعلن وحى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعاً .

كل هذه المبادئ الكريمة تنبئنا برأى الإسلام في الملكية :

فهو لا يعترف بملكية اقتطعها الحاكم من مال الأمة ومنحها لمن يشاء دون حساب . ولا يعترف بملكية آلت إلى صاحبها نبأ واستغلا لا لتنفيذ ، أو سرقة خفية من أملاك الدولة ، أو تحت ضغط الحاجة الملحة المصنوعة ، ولا يعترف بملكية ملكها صاحبها بمال جمعه بشئ الوسائل الغير المشروعة ، دون أن يؤدي منه حقوق الله والفقراء وزكاة المال .

وكل ملكية لا يعترف بها الإسلام يجب مصادرتها وضمها إلى بيت المال . . ومن باب أولى يجوز ردها إلى الدولة عن طريق الشراء ، ليعاد توزيعها على الفقراء توزيعاً عادلاً . والفقراء هنا ليسوا عدداً قليلاً حتى لا يحسب لهم حساب ، وإنما هم الأغلبية العظمى من الشعب ، إن لم يكونوا الشعب كله ، ممن لا يجدون الغذاء والكساء وثنى النواء .

ولقد أباح الإسلام مصادرة الأموال التي جمعها أصحابها من دماء الناس طلباً ومهتاتاً، ومبدأ المصادرة تنزل في الإسلام، فهذا عمر بن الخطاب قد صادر أموال كثير من ولاته على الأقاليم: كعمرو بن العاص وأبي هريرة والنعمان بن عدي وعامله على اليمن وعلى مسكة والكوفة والشام. ولقد كان خلفاء المسلمين وولاتهم وعماهم يتعففون عن مال الدولة، لا يمسونه ولا يقرّبونه، فضلاً عن أن يملكوا أرض المسلمين، وكان رسول الله يحاسب ولاته حساباً عسيراً يسألهم: من أين لكم هذا؟ وولى مرة رجلاً على أموال الزكاة، فلما رجع حاسبه، فقال الرجل: هذا لكم وهذا أهدي إلي، فقال الرسول الكريم: ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله، فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر أيدي إليهم أم لا؟

وهذا عمر بن عبد العزيز لما ولي خلافة المسلمين، نزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعي، ومنق كسب الإقطاعات بالضياح والنواحي، وأعطى قطائع أهله وهم أولاد الخلفاء من بني أمية، وضمها إلى بيت المال، ومنق ما معهم من وثائق بملكيتها... وكان أبوه عبد العزيز والى مصر للخليفة عبد الملك بن مروان، فأهداه الخليفة أرض حلوان إقطاعاً، فلما ولي ابنه عمر بن عبد العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطلب إليه رد أرضه التي أخذها أبوه منه طلباً في حلوان، فقال عمر: تعال نحتكم إلى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله، فإن لي فيها شركاء إخوة وأخوات، لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض، وقام معه إلى القاضى فتهد الخليفة بين يديه وتكلم بجمته، وتكلم المصري، فقضى القاضى للبصرى على الخليفة، فقال عمر بن عبد العزيز: قد أنفق عليها ألف ألف درهم، فقال القاضى: لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا، فاطمأنت نفس عمر، وقال: وهل القضاء

إلا هذا ؟ تا الله لو قضيت لي ما وليت لي عملاً .

وهناك كثير من الملكيات قد امتلكت من الفلاحين الفقراء المدينين بطريق المزايدة ، وهو ملك فيه إثم وشبهة ، ولقد كان على بن أبي طالب وهو خليفة المسلمين ينهى عماله أن يبيعوا حاجيات الفلاح وأدوات زراعته ، وما يعيش عليه هو وأولاده من ثروة ، لسداد ما عليه من دين أوخراج .

هذا حديث الملكيات التي يجب أن تصادر في رأى الإسلام ، أما الملكيات الكبيرة الأخرى التي قد تجوز فيقول قائلنا : إنها ملكت بطرق مشروعة لادخل فيها للاستغلال ، ولا لجمالة الأقوياء على حساب الضعفاء ، فإن ردها إلى الدولة لتوزعها على الشعب ، وإن لم يكن واجباً لكنه جائز بحكم الدين ، فإن الله تعالى قد ذكره أن تكون الأموال ومصادر الثروة في أيدي طبقة خاصة من الشعب ، وهم الأغنياء وحدهم دون الفقراء ، أفلا تنظر إلى قوله تعالى : « ما آفاه الله على رسوله من أهل القرى فله والرسول ولذئ القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . فنظام الثراء الفاحش والفقير الشديد لا يقره الإسلام ، شريعة المدنية المهدبة والإنسانية الرفيعة . إن الإسلام لا يبيح إثراء أفراد بإفقار أمة ، ولا إسراف طائفة في التملك بإشقاء مجتمع بأسره ، بل إنه يحجز الحجر على الأقوياء حتى لا يسرفوا في تملك الأرض ، فهذا عمر بن الخطاب يحجر على أعلام قريش من المهاجرين ، حتى لا يخرجوا إلى البلاد المفتوحة يمتلكون أرضها دون الناس ، وكان يقول : « إلا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادته ، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا . . » .

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حديث ينص بصراحة تامة على أن مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه ، وإما أن يتنازل عنها ولو بالمهبة لغيره من الناس ، قال جابر : كان لرجال من أفضل أرض فقالوا توجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤجرها لغيره ، أى يزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها بالمهبة لأخيه المسلم ، ولا يعطيها لغيره مؤجرة ، لأن ذلك مظهر للتعاون التام الواجب بين المسلمين .

إن الإسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ، ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله إخواناً ، وليتعاون الفقراء والأغنياء على خير الأمانة وسعادتها ومجدها ، ولتقارب الطبقات ، وتزول الفروق الواسعة بين الناس ، ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعري ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعي بأنهما كغيرهما من الناس ، لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وإن الحكومة التي تقوم على شئون الشعب ، تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق ما يقول الرسول الكريم : أيما أهل عرصة - أى محلة - أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برمت منهم ذمة الله تبارك وتعالى . .

## ماضى الاسلام

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، اللهم فاشهد أن المسلمين الأولين قد أدوا الرسالة وبلغوا الأمانة ، وكتبوا لماضى الإسلام مجدا لن تزول معالنه أو يفنى صداه ، وإن جهله الجاهلون من أبناء الإسلام اليوم .

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، أن عقبة وصل بجيشه الظافر إلى المحيط الأطلسى غربا ، ولم يردده شيء عن نشر راية الإسلام إلا البحر ، وأن قتيبة ابن مسلم غزا بجيشه الظافر شرقا البلاد حتى دخل الهند ، وأن أبطالا من المسلمين أذنوا بدعوة الإسلام في الصين ، وأن أبطالا آخرين حملوه إلى جاوة وجزر الهند الشرقية ، ثم شرق إفريقيا فأواسطها لجنوبيها وغربيها .

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، أن أبطالا ميامين من العرب المسلمين دخلوا جزر البحر الأبيض المتوسط : كريت وقبرص وصقلية ورودرس وسواها ، وأذنوا فيها بدعوة الإسلام ، وبنوا المدارس والمساجد والجامعات ، وأعزوا العلم ، وهبشوا للإنسان كل أسباب النهضة .

وهل ننسى ما فعله طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فاتحاً الأندلس وناشراً كلة الإسلام ورسائله فيها . وهل ننسى عبد الرحمن النافق ، وقد سار بجيش لجب إلى وادى اللوار في فرنسا ، وتقدم حتى مدينة تور ، ونازل الفرنسيين وهزمهم ، لولا الحظ الآفل الذى وقف سداً متيناً أمامه ، حين بدأت المعركة حول بواتيه وتور يوم الجمعة ٧ شعبان ١١٤ هـ - ٢ من أكتوبر ٧٣٢ م ، فهزم الجيش ، وقتل النافق وانسحب من نجا من المعركة من المسلمين إلى ماوراء جبال البرانس ، وكانت هذه الهزيمة بخداع شارل



مارتل الجرماني الكارولنجي المتعصب ، مقدمة للمعارك التي استمرت في أسبانيا ثمانية قرون وانتهت بطرد المسلمين منها ، وعو جميع معالم الحضارة من مدنها ، بما يقول فيه نيته : حرمتنا المسيحية من ميراث العبقريّة القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام ، لقد ديس بالآقدام تلك المدينة العظيمة ، مدينة الأندلس المغربية ، ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ، نعم من غرائز رجال وأيدي رجال تلك المدينة الإسلامية لم تنكر الحياة بل أجاهتها بالإيجاب ، وفحت لها صدرها ؛ ولقد قاتل الصليبيون تلك المدينة بعد ذلك ، وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ويعبدوها ؛ وما مدّيتنا في هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وانية بجانب مدينة الإسلام في ذلك الوقت .

إن هزيمة النافق كانت شهادة ناطقة للإسلام والمسلمين ، وكانت صفحة مجيدة من سجل ماضي الإسلام المشرق ، وفيها يقول المسيو كلود فارير الفرنسي ، الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس : حدثت فاجعة كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى ، وكان من نتائجها أن غمر العالم مدة ثمانية قرون طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة . هذه الفاجعة هي الانتصار البغيض الذي ناله على مقربة من بلدة بواتيه قريبا من تور - أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتاب العرب المسلمين ، تحت لواء النافق عام ٧٣٢ م - ١١٤ هـ ، ففي ذلك اليوم المشؤم تقهقرت المدينة إلى الوراء ثمانية قرون ، وبكى المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين آثار مدنها في اشبيلية وقرطبة وغرناطة وطليلة ، ليشاهد والألم الغريب آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أقتنحها الإسلام العمراني الفلسفي السلي المسامح - لأن

الإسلام مجموعة كل هذا - غلصها من الأهاويل والدمار والخراب الذي وقعت فيه غالبا القديمة وسواها ، في حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير غربا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر في ظل الإسلام .

اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين ، أن قتيبة بن مسلم الباهلي قد ساه تحت راية الإسلام بحيشته في الأرض ، ففتح بخاري وسمرقند والصفد ، وتعمق في بلاد الهند حتى وصل مدينة كاشغر ، وهي أدنى مدن الصين . ولما دخل سمرقند سجد شكرا لله وبنى مسجدا فيها عام ٧١٤ م ، ليكون منارة للإسلام ، ثم حطم الأوثان والأصنام المنصوبة فيها وألقاها في النار . وبعث قتيبة رسالة إلى امبراطور الصين ، بواضع جونغ ، ( ٧١٢ - ٧٥٥ م ) يدعو فيه إلى الإسلام وذلك عام ٩٦ هـ - ٧١٥ م .

إن النور الذي انبثق من جزيرة العرب على يد محمد بن عبد الله قد أضاء العالم كله خلال قرن ، أو يزيد على قرن بقليل ، وإن رسالة محمد بن عبد الله قد دعت إلى العلم والمثل الرفيعة والثورى والديمقراطية ، والأخذ بأسباب الحضارة ، وقد حاربت الوحشية والجاهلية والاستبداد والظلم في العالم كله ، وقد فشلت الحروب الصليبية المدمرة المخربة في زعزعة كيان الإسلام في الشرق ، وإن كانت البربرية المسيحية قد أبادت الحضارة الإسلامية ومعالم النهضة التي شادها المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ، ثم أبادت كل ذلك عام ٨٩٧ هـ - ١٤٥٣ م حين اقتضت على المدن الإسلامية فدمرتها ، وأجلت المسلمين عن الأندلس ، وقتلت وعذبت وشردت واضطهدت الملايين وأحرقت ملايين الكتب ، وألقت بمثلها في البحر .

ولكن التكتبات الموج التي منى بها الإسلام والمسلمون لم تضعف

روح الإسلام ولم ترزعزع من كيانه ولا من الثقة فيه في قلوب الناس كافة .  
إن تخريب الفاطميين وإحراقهم لمدينة القسطنطين عام ٥٦٤ هـ بما فيها  
من مساجد وجامعات ومدارس ومكتبات وكتب تعد بالملايين ، ثم تخريب  
التار لبغداد مركز الحضارة العالمي في هذه العصور عام ٦٥٦ هـ ، ثم سقوط  
الأندلس عام ٨٩٧ هـ ، كل أولئك لم يضعف الإسلام ولم يزعزع من إيمان  
المسلمين .

هذا هو ماضى الإسلام المشرق وأى ماض هو ؟ ألم ينتصر الإسلام في  
حربه اعصور الإقطاع والوحشية والظلم ؟ ألم يؤئل الإسلام للحضارة  
متاراً رفيعاً في قرطبة وغرناطة والقيروان والقسطنطين ودمشق والبصرة  
والكوفة ومكة والمدينة وبغداد وبخارى وسواها من عواصم الإسلام  
الكبرى ؟ ألم يحرر الإسلام العبيد ويرفع من شأن المستضعفين في الأرض ؟  
إلى غير ذلك من جلائل الأعمال .

هذا هو ماضينا المجيد ، لكن الغرب المادى الجاهل المسلح المتعصب ضد  
الإسلام حارب الإسلام ذوراً وبهتاناً ، نسب كل فضائل الإسلام له وجنى  
الثمار التي غرسها المسلمون في شتى النواحي فلم يكشف أمريكا إلا العرب الذين  
قادوا سفن كوليس ولم يكشف طريق رأس الرجاء الصالح إلا العرب الذين  
كانوا ملاحي أسطول فارسكورى جاما ولم يهتد الغرب إلى تراث الإغريق  
العقل إلا بجهود العرب ، وبذلك كشف الغرب ماضيه وأخذ ينتقب عنه ،  
ولم يهتد الغرب إلى أصول الحضارة وإنما أخذها من المسلمين الذين كانوا حملة  
ألوية الحضارة الإنسانية .

واستدار الزمن دورته فخارب الغرب الإسلام في كل ميدان ، وانتصر

على المسلمين لجهلهم وغرورهم ويدهم عن روح الإسلام ، ووقف إلني في القدس بعد الحرب العالمية الأولى يقول : الآن انتهت الحروب الصليبية . ومن قبل وقف كرومر في مصر يهاجم الإسلام ، ويهدد الثقافة الإسلامية ، ويعلمن الحرب على كل ما هو إسلامي ، ويتدبأ بسيادة الثقافة الغربية والمتعلمين على أسلوها في مصر ، ويرى بالثقافة الإسلامية ويقول :

إن الإسلام تاجع كعقيدة ولكنه فاشل كنظام اجتماعي ، ثم يقول : إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوربية لا يصلح لحكم مصر ، وإن المستقبل الوزاري في مصر سيكون للصيريين الآخذين بحظ من التربية الأوربية البحتة (١) . ثم عملت جيوش الاستعمار الغربي على عمو الصبغة العربية الإسلامية لشعوب شمال إفريقيا وشرق إفريقيا ووسطها ، فأخذت فرنسا تقتل الملايين من أهل شمال إفريقيا المطالبين بالحرية والاستقلال ، وتأمرت بريطانيا وأمريكا مع إسرائيل على عرب فلسطين فنهبوا بلادهم وسلبوها لأفاقين من اليهود ، وغلق الاستعمار طبقة من المنفردجين الجاهلين الذين يعبدون الغرب ويكفرون بالشرق وماضيه ، قالوا : إن الغرب علنا فكرة الحرية الشخصية وفكرة الدستور وفكرة تحرير المرأة وفكرة الآخذ من العلوم الحديثة وفكرة الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، وهم في ذلك جاهلون ، فلم تلك فكرة الحرية الشخصية وتحرير المرأة والآخذ من كل العلوم بنصيب إلا أثرا لمبادئ الإسلام ، وفكرة الدستور والحياة النيابية نجد الإسلام ومبادئه دعوة إليها ، وقد طبقها بعض الحكام المسلمين وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، بل إن أول ملك من ملوك بني عباد في

(١) كتاب عباس الثاني للورد كرومر ، ص ٦٧

اشييلية في القرن الخامس الهجري وضع لشعبه حكومة نيابية برلمانية على أحدث النظم العالمية الحديثة (١). أما فكرة النظر إلى الإسلام على أنه دين كهنوت وأجناد علانية والمتقنين ثقافة إسلامية محضة عن شئون الحكم، وتحكيم القانون الفرنسي وحده في حياتنا . فذلك لا يريد على كونه نتيجة لتخطيط كرومر الاستعماري الداهية في مصر منذ نصف قرن من الزمان . لا بد أن يدرك أبناء الإسلام أن دينهم دين حي عالد ، قاد الإنسانية إلى شاطئ العزة والحرية ، والسلام، وسيقودها من جديد مرة أخرى إلى حياة أسمى وأفضل مما بلغت .

إن عيب المسلمين في تحاذلهم وتفككك وحدتهم . . وفي قيام اتحاد إسلامي قوي بين الدول العربية حيولة بين المسلمين وبين الذلة والشقاء والتهوى تحت أقدام الاستعمار .

إن تحاذل المسلمين أدى إلى ضياع الأندلس ، ثم ضياع فلسطين ، وأدى إلى عدم تفكير المسلمين مرة أخرى في أن يبلغوا رسالة الإسلام إلى العالم كافة ونحن نقول : إن العالم الإسلامي يجب أن ينهض من جديد ليصل حاضر الإسلام المرتقب بماضيه العزيز المجيد الخالد ، وما ذلك على الله بعزيز . ويقول الأستاذ محمد ناجي من مقالة له بعنوان : « اتجاهاات الإسلام » : اندفعت الأسرة الإسلامية الجديدة ، وسرعان ما تحولت من أسرة دينية إلى وحدة سياسية ، اندفعت غربا ففتحت الشام ، ومصر، وشمال أفريقيا،

---

(١) راجع كتاب المعجب في أخبار المغرب لابن سعيد ، وكتابتنا « قصة الأدب في الأندلس ، وهو تحت الطبع .

ونظمت جبل طارق وفتحت الأندلس ، واعتزم موسى بن نصير أن يدور حول البحر الأبيض حتى يصل الشام ، فخافه الوليد بن عبد الملك واستدعاه ، ووقفت الخافرة الثلاثة الإسلامية تطل على أوروبا : طليطلة في الأندلس ، وصقلية وجنوب إيطاليا ، وقد دانت للعرب ، ثم الشام ، وامتدت الأسرة شرقا فدانت لها فارس والهند وإيران وأفغانستان ، ووصلت شمالا للقوقاز وشرقا حتى شملت مقاطعة نيبان في جنوب الصين ، ونزلت حتى الملايو ، ذلك ما يذكره التاريخ بيقين ، ولكن المسلمين المغامرين نزلوا البحر من مراكز ثلاثة ليعمروا جزائر البحر في العالم أجمع :

١ - المركز الأول : الشام . وقد امتد حتى أمريكا الجنوبية والمهجر .

٢ - المركز الثاني . حضرموت . حيث أظهر العرب جلدا ومقاومة في البحر فنزلوا إلى شرق أفريقيا وكونوا ملك مسلة في مدغشقر وجزائر القمر وزنجبار ودخلوا أفريقيا فكونوا سلطنة كبيرة و سلطنة راجع ، التي عرفنا عنها الكثير من دوائر المعارف الفرنسية ومن حروبها ضد المستعمرين . فنزل الإسلام فتخطى زمبيزي ، ووصل إلى جنوب أفريقيا ونيسالاند ، وقد انتشرت فيها المساجد ومدارس تحفيظ القرآن ، واتجه الحاضرة لجزائر المحيط الهندي كلديف وملاديف وسرانديف .

٣ - ونزل من المركز الثالث في الملايو أمم إسلامية احتلت جاوة وسومطرة وبورنيو وسليبيز والفلبين وانتشرت في جزر المحيط الهادي أجمع ووصلت حتى بورت دارون في استراليا .

ذلك يوم الإسلام الأجد . لم يكن في العالم كله أمة تقارن نفسها بالأمة الإسلامية . فقد كانت أوروبا في دياجير ظلمات العصور الوسطى ، ولم تكن أمريكا .. وظلت الاسرة الإسلامية وحيدة فريدة ممتازة في العالم . وتلا ذلك اليوم الأغريل بهم حالك تدهورت فيه المقاييس في الأمة الإسلامية ، وتقسمت وتمزقت ودخل في الحسكام غرور متاع الدنيا فقامت دولة الخدانيين ، وبنى بويه ، والسلاجقة ، والأيوبيين والادارسة ، وانتزعت الأندلس من الإسلام . وكانت أهم هذه الأقسام أثرا على الإسلام دولة الفاطميين في مصر وإنشاء الأزهر الشريف . . : وظن بعض المؤرخين أنه أنشئ . ليقوم كعبة للشيعة يصرف بها المسلمون عن كعبتهم في مكة ، والواقع أنه كان اتجاها جديدا في الإسلام يرجع به المؤمنون إلى الحال الثقافية الواجبة للإسلام ولذا أجرى العزير بالله الأرزاق على المجاورين فيه من كافة أنحاء العالم الإسلامي .

وبنست الحكمة الإسلامية آخر الأمر من الشرق الإسلامي فتخطته إلى القسطنطينية تبحث عن مكان آخر تنتشر فيه ، فتفتحت أعين أوروبا بمدخله ، وأخذ لوتر وكلفن والميجونوت يعترضون ويصلحون من شأن الدين ، وأخذ كوايريكاس وجا ليليو يعترضون على الأفكار القديمة ويصلحون من نظريات الجغرافيا ، وأخذ الأوربيون يعزبون في البحر فكشفت أمريكا ، ودار مجلان حول العالم وقامت الثورة الفرنسية وقامت الحركة الصناعية الكبرى في أوروبا ، وأصبحت أوروبا وكل شبر فيها ينم عن جهد وتفكير فصارت محضرة متحضرة متمدينة .

وانتقلت المدوى إلى الشرق في أوائل القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، فأخذ التجديد شكل حركة دينية إصلاحية في الشرق على يدى الأفغانى ومحمد

عبده : ونهضة فكرية كبرى تقابل النهضة الفكرية الأوروبية وهكذا.. ثم قامت حركة التحرير فأخذ بها الإمام الشوكاني في اليمن ، والسيد أحمد خان في الهند ، ويعقوب بك في الصين والشيخ شامل في القوقاز ، ومدحت باشا في بلاد الترك ، والشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني في مصر ، وعبد القادر الجزائري في الجزائر.. وكانت أهم هذه الاتجاهات الحديثة حركة الأفغاني العقلية الذي كان ينادي بشعاره : لا أمه بغير أخلاق ، ولا أخلاق بغير عقيدة ، ولا عقيدة بغير فهم ، وكان من الاتجاه الثاني حركة السنوسي في ليبيا فأثما الزوايا في الصحراء ليصلح من نفوس المسلمين أولا ليعدهم ليومهم الثاني ، أو يوم البعث ، وفكر جمال الدين الأفغاني أن حركة المهدي في السودان قد تنتشر فتكون جامعة إسلامية جديدة ولم يكن المهدي الوحيد الذي قام بنية الإصلاح ، فقد قام أكثر من واحد في بلاد المغرب ، وظلت الفكرة متصلة في العراق وإيران .



## المادية تحارب روح الدين في الإنسان

- ١ -

المادية قديمة في العالم ، تنكر وجود الله ، ولا تعترف بالرسالات والأنبياء ، وتدعو إلى التحرر من كل الصلات الروحية التي تربط الإنسان بالكون والوجود ؛ وهي أخطر المذاهب على فكرة الدين ، وفطرة الإيمان في النفس البشرية :

وقد تجددت المادية في العصر الحديث في الشيوعية الماركسية ، التي احتضنت المادية وآمنت بها ، ودعت إلى حرية الدعوة اللا دينية وعززتها .. ومن أسس الفلسفة المادية الماركسية الشيوعية كما فسرهما زعماءها ما يلي :

١ - المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه . والمادة تأتي في الصدارة ويتلوها العقل ، ومن ثم الحياة المادية للجمع والوجود المادي له ، لها السيادة على الحياة الروحية التي هي انعكاس الوجود ، ويمتلك زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : « إن على حزب طبقه العمال ألا يقيم أعماله على مبادئ العقل البشري المجردة ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للجمع ، باعتبارها القوى الفاصلة للارتفاع الاجتماعي (١) »

٢ - العالم بطبيعته مادي ، والظواهر المتصاعدة للعالم تستلزم على أشكال مختلفة من المادة في تحرك ، وارتباط الظواهر واعتقاد بعضها على بعض هو قانون ارتفاع المادة وليس من حاجة له إلى الروح الشاملة : فالشيوعية تؤمن

بنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله :

وترجع الشيوعية كل شيء ، حتى الدين والفلسفة والقانون والسياسة والأخلاق والثقافة والفكر ، إلى انعكاسات للآحوال الاقتصادية ومصالح الطبقات . فالعامل الحاسم عندهم هو طريقة الحصول على مقومات الحياة الضرورية للبشرية ، وتاريخ ارتقاء المجتمع كما يقول لينين هو قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج ، فهو أساس كل نظام اجتماعي ، وكل شيء عندهم يخضع للتفسير الاقتصادي ويجب أن يكون هدفه زيادة الثروة ، حتى الأدب ، فالأدب الجيد عندهم هو الذي يدعو إلى زيادة الإنتاج الإنساني ويعاون العناصر التي تعمل لتحقيق ذلك . وكل حديث تاريخي له في رأيهم تفسير اقتصادي ، وهذا التفسير المادي لتاريخ ينكر الدين بداهة .

فالمادية الماركسية إلحادية بطبيعتها ، معادية عداء مستحكم لكل ما يمت بصلة إلى الدين ، وكان ماركس زعيم الشيوعيين الروحي وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين إلى بالمحسوسات ، وبما يؤثر عنه قوله : « لا إله ، والحياة مادة » وهو شعار الشيوعية الحديثة ، وكان يقول : إن الدين هو مخدر الشعوب ، ويقول : « ليس الدين هو الذي يخلق الرجل ولكن الرجل هو الذي يخلق الدين » والدين هو صدى آئين لانسان المدوس بالآفدام ، ويقول : رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين وعلى الداعين إليه . ويقول هويزر أستاذ ماركس : « إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا ، فانا لا نستطيع أن نعلم شيئاً عن وجود الله ، إن وجودي الخاص بي هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » ، ويقول فردريك انجلز : لامل محطفا لوجود خالق ، ويصر لينين على أن الدين مسألة خاصة بالفرد

لا علاقة له بالدولة ، أى يرى فصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً ، فلكل فرد فى رأيه الحق المطلق فى اعتناق أى دين وفى عدم الإيمان بدين ، ويجب طرح التفكير فى الدين نهائياً . ويقول ستالين : « الحزب الشيوعى لا يمكن أن يكون محايداً تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين يتناقض به » . هذه هى عقيدة الماركسية الشيوعية التى جعلت أعمالهم تسير وفق هذا الاتجاه المادى الإلحادى ؛ وفى قانون ٥ فبراير ١٩١٨ الذى صدر فى روسيا نص على فصل الدين عن الدولة ؛ وأن كل مواطن حر فى اعتناق أى دين من الأديان وفى عدم الإيمان بشئ . منها ؛ وألغى القسم بالدين ، وفصل التعليم عن الدين ، وحرّم التعليم الدينى فى شتى أنحاء الاتحاد السوفيتى حتى فى الجمهوريات الإسلامية ، وصودرت أملاك الهيئات الدينية ، وتلا ذلك سياسة القضاء على الدين ومظاهره فى الدولة ، والخلع على رجال الدين ، وتحريم ظهورهم فى المجتمعات العامة ، وقتل عدد كبير منهم ، وأغلقت المساجد والكنائس ، وحولت إلى مكاتب للدواوين ، وصودرت أموالها ؛ وحرّم تدريس الدين ، وألغيت الجماعات والهيئات للدعاية اللادينية ، وصدرت مجلات تدعو إلى الإلحاد (١) . وفى عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر موسكو لوضع الإجراءات الكفيلة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الإلحاد فى المدارس والجيش ، وقام « اتحاد الإلحاد » بهذه الرسالة ، وبلغ عدد فروعه عام ١٩٣٥ سبعمائة ألف فرع تضم الملايين ، وبتأثيره صار معظم السكان ملحدين ، وبذلك تمطت مادة الدستور التى تنص على أن الدعاية الدينية مكفولة كالدعاية اللادينية ، فأصبح لرجال الدين أن يقيموا الصلاة ، ولكن يحظر عليهم أن يدعوا إلى دين ،

(١) راجع ١٣٧ و ١٣٨ الدستور السوفيتى .

أما موقف المادبة من الإسلام خاصة فواضح كل الوضوح من أقوال زعمائها وساستها : يقول مولوتوف « لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أبعادنا أهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز وفلسطين » ، ولقد عادت الشيوعية فكرة الجامعة الإسلامية الجامعة لقوميات المسلمين عداء شديداً ، ولم يأت عام ١٩٣٣ حتى أرغمت الحكومة القوميات الإسلامية على اتخاذ الحروف اللاتينية عوضاً عن الحروف العربية ؛ وبذلك قطعت صلة هذه القوميات بالعالم الإسلامي ، وفي عام ١٩٣٧ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية ، وكل هذا لإقامة سد يصد الدعوة الإسلامية ، مع أن روسيا أبحاث للآمن والجورجيين الاحتفاظ بحروفهم المحلية الخاصة ؛ ولم ترغمهم على استبدالها بالحروف اللاتينية ، مع قلة عددهم بالنسبة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي الذين يبلغون نحو ثلاثين مليوناً ؛ وبهذا أصبح المورد الثقافي للمسلمين في روسيا هو اللغة الروسية وآدابها وثقافتها ، عوضاً عن اللغة العربية والثقافة والآداب الإسلامية ؛ وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية للمسلمين في روسيا ، إذ لا تجيز القوانين هناك أن تكون لاية قومية أو أقلية عنصرية فيه — ومن بينهم المسلمون — علاقة روحية أو ثقافية بقومية أخرى لا تماثلها في العقيدة أو الثقافة خارج نطاق الاتحاد السوفيتي (١) ، وهذا حرمت روسيا على المسلمين الحج إلى بيت الله الحرام ، وحالت بينهم وبين الاتصال روحياً وثقافياً بالعالم الإسلامي الحر ، وقد اضطهدت روسيا المسلمين في تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة وخوارزم وفي كل مكان اضطهاداً شديداً ، ونفت الكثير منهم إلى مجاهل سيبيريا ، وظهر شعورها حيال المسلمين واضحا من تأييدها المطلق

(١) ١٩٠ الدستور السوفيتي .

قيام دولة الصيويين في فلسطين العربية .

وإذا كان دستور ١٩٣٩ قد تنقل عن فكرة حرمان رجال الدين من حقوقهم السياسية ، فإن ميعة ذلك زوال هذه الطبقة من المجتمع وتمكين النظام السوفييتي . . . في خلال الحرب الأخيرة أطلقت الحكومة الحرية الدينية من عقابها ، فأعلن زعماء الشيوعية في مستهل عام ١٩٤٣ الرجوع إلى الدين والاعتراف بالله ، وإن كان هذا لا يعني إيمان الشيوعية بالدين ، فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل في صفوفها إنساناً يؤمن بدين من الأديان (١) ، والتمتع بكافة مراحله ينشر الاتحاد ، والحيثيات والمنظمات الشيوعية كلها تصدف عن الدين ، ورجال الدين تأييدهم على الشباب قليل ، وهم يخضعون لتوجيهات الدولة ويدعون لسياساتها ويوجههم مجلس المعتقدات الدينية الخاضع لسيطرة مجلس الوزراء . . . إن الشعوب خلال الحروب لا تستطيع أن تعيش بغير دين ، وهذا وحسب ضرورة الرد على دعايات هتلر والفانيسكان ، والتعريف إلى الدول الديمقراطية ، وكسب ثقة الشعوب السلافية ، هو سر ذلك التحول في سياسة الشيوعية نحو الدين خلال الحرب الأخيرة ، على أنه لم يبلغ قبول روسيا للدين ولا الإذن به إلى العطف ، ولم يصل الدين مع ذلك إلى سابق عهده قبل الثورة (٢) .

إن الدين كائن ما كان عنصر من العناصر التي لا تتم الحياة بدونها . حتى هؤلاء الذين نسميهم ملاحدة ، أغلب الظن أن لاكثرهم رأياً في أسلوب الحياة كيف يحياها الحي ، وتصوراً لما قد تكون عليه الحال بعد الموت ، فهذا الرأي وذلك التصور كثيراً ما يرتفعان إلى نوع من أنواع العقيدة التي قد

(١) ١٤٢ الدستور السوفييتي

(٢) عن كتاب روسيا السوفيتية لدالن

تنتهى إلى أن تكون ديناً ، ولقد كان تولستوى الميثر الروحى بالصيوعية مؤمناً بالدين ، وكان يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة ، ويقول : « لئن لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى أتملق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ، عشت باحثاً عن الله وإذا فلن تعيش بدينه ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى السكال الخلق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة . » ويقول شوبنهاور : إن فكرة الاله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح والعلاقة بين الله وعباده كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة تغييرها البقاء . » ويقول رينان : « من الممكن أن يتلاشى كل شئ بحبه إلا الدين ، فسيتبقى أبد الأبدن حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . » ويقول أوجست سياستيه فى كتابه « فلسفة الدين » : « أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك ، فالمتدين لازم معنى من لوازم ذاتى . »

وكتب الرئيس الأسبق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه « الإنسان ليس وحيداً » ويقول (١) : « إن البشر لا يزالون فى فجر عصر العلم ، وكلما ازداد حياء العلم سطوعاً جلالنا شيئاً فشيئاً صنعة خالق مبدع ، وفى السنوات التسعين التى مضت منذ عهد « دارون » تمت للعلماء كشوف هائلة ، وبذلك صار التواضع — الذى هو شعبة العلماء — والإيمان القائم على العلم يدتوان بنا رويداً رويداً من معرفة الله . » ثم عدد سبعة أسباب للإيمان بوجود الله ، ترجع إلى مظاهر التدبير الإلهى فى الحياة والكون

(١) من مقال نشر فى عدد فبراير ١٩٤٧ فى مجلة المختار بعنوان : « سبعة أسباب لإيمان عالم بالله . »

والطبيعة ، إلى أن قال : « إن قدرة السماء في كل مكان وكل شيء ، وإن الله في كل مكان وعند كل شيء ، ولكن الله أدنى ما يكون إلى قلوبنا ؛ إن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعاً . . . . وأفق عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة ، بأن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الكون ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له ، ويقول أحدهم — وهو الدكتور راين — إنه ثبت من أبحاثه في المعامل إن في الجسم البشري روحاً أوجسماً آخر غير منظور ، وقال عالم آخر إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية والله هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود (١) .

أبعد هذا كله دليل على خطئ الماديين ، وفساد رأيهم وذهابهم في الدين ، وأنهم على ضلال مبين ؟ وتبارك الله عز وجل القائل في كتابه الحكيم : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نملكن إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا آتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قل الله يمسحكم من حيثكم ثم يمسحكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وصدق الله العظيم

(١) عدد ٢٣ / ٨ / ١٩٥١ من صحيفة المعري

(٢) سورة الجاثية

### من حديث الإسلام

جاء الإسلام ، ودان لعقيدته العرب ، وغضمت لإمرة الهداة الداعين إليه وإلى الله القبايل والشعوب ، وأصبحت الأمم تنظر إلى المسلم وكأنه ملك جاء يشرها بالحرر ، ويفتح بينها وبين الحياة أبوابا متصلة ، وينقذها من الظلام الذي كانت تعيش فيه ؛ ظلام الوحشية والجهل والاستبداد ، ودخل المسلم البلاد وفي يده وثيقة هي كتاب الله القرآن الكريم ؛ وثيقة الحرية للمضطهدين ؛ ودستور الحياة للمعذبين ، وقانون الأمن والسلام والرفاهية للمحرومين المتكويين ، وطالما اهتزت الملوك فرقا عندما جاءهم المسلمون يعلنونهم بكلمة الله : حرية وكرامة وإخاء ومساواة للإنسان وعزة وتعاون ورفاهية للأمم

وهكذا كان المسلمون ؛ وكانت منزلاتهم عند شعوب الأرض ، كانت الدنيا ترهبهم ، والملوك تفرح من إرادتهم ، والأرض تهز بقوتهم وعزيمتهم ، وكانوا جثا في ثياب بشر ؛ وملائكة في زى بدو ، بل إنهم مكثروا أزمنة مديدة في جزيرتهم قانعين بالحياة البسيطة الهادئة فيها ، يعيشون في وديانها يحارب بعضهم بعضا لأسباب واهية ، وأمور تافهة ، ويجاورهم دولتان عظيمتان : دولة الفرس ودولة الروم ، وقضوا على هذه الحال قرونا متعاقبة ، حتى جاء الإسلام بهديه فأثار بصائرهم ، وأزال ما كان بينهم من شقاق وعداوة ، وألف بين قلوبهم ، فصاروا أمة مهيبة مثدنية قوية اليأس . خرجت جنود هذه الأمة من شبه الجزيرة العربية داعية إلى الأخوة ، حاملة لواء العدالة ، رافعة راية الحرية ، خاضعة لإمام واحد تأتمر بأمره ، وتنتهي بشيئه ، جادة في فتح الأمصار ، لتنفذ الأمم من غرافات أفسدت عقولها ، وظلم أحاط بها ، وجعل كاد يقضى عليها .



وفتح العرب في غزواتهم بمالك كثيرة، وعمروا الأرض التي فتحوها، وشقوا الأنهار، وأسسوا المدن، وساسوا الناس بالعدالة، ونشروا الحضارة والحرية والمساواة والأخاء في أرجاء العالم

وكان الفتح الإسلامي محدوداً بأغراض وغايات، لا يصح لقائد أن يتجاوزها، ولا للجيش أن يخالفها. وكان الجيش الإسلامي هو جيش الأمان للمظلومين؛ ووظيفته دعوة الناس إلى الإسلام ودعوة أوربة، وبين لك هذا كتاب عمر بن الخطاب إلى قائد جيوشه: سعد بن أبي وقاص، قال: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم. فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمصيبة عدوهم لله. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عدونا ليس كعددهم. ولاعدتنا كعدتهم. فإن استوتنا في المصيبة كان لهم الفضل علينا في القوة. وإلا تنصر عليهم بفضلنا لم تغلبهم بقوتنا. فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعملون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا: إن عدونا شر منا، فلن يسلط علينا. قرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل — لما عملوا بما غط الله — كفار المجوس. (لجأسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولاً)

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسألو الله تعالى ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تهمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصرهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم — والسفر لم ينقص قوتهم فانهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم

وأمتعتهم . ونح منازلهم من غري أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تلق بديته ، ولا يرد أحدا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم قتلوا لهم غيرا ولا تنصروا على أهل الحرب يظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك . وليكن منك من دونك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومراقبهم وتتبع الطلائع عورائهم وتتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخبر لهم سوايق الخيل فإن لقو عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاء ولا تخص بها أحدا سوى فتضيق من رأيك وأمرك أكثر مما حاجا بيت به أهل عاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكابة فإذا غلب العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تماجلهم المناجزة ما لم يستكرك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كمنه بك ثم أذك أحراسك على صكرك وتيقظ من البيات جهديك ولا تؤق بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك والله ولي أمرك ومن معك وولي النصركم على عدوك ، والله المستعان والحمد لله رب العالمين

وقد حرص الإسلام على تحقيق العدل دون هوادة ولا ترخص ولا تسامح..  
العدل الشامل المطلق الذي لا يعرف عاباة ولا مجاملة ولا مرونة ولا صبرا

ولا قرابة ؛ ولا يتأثر برضاء أو غضب ، ولا يغير ذلك من الاعتبارات التي قد  
توهن من قوته وتضعف من مضائه . فهذه آيات الكتاب الكريم تفيض  
بالحن على النفس بالعدل في أروع الصور وفي شتى المناسبات ، وهذه أحاديث  
الرسول الأمين وسنته توازن العدل وتدعم أركانه بالقول والعمل والقُدوة  
الحسنة ، وهؤلاء أئمة المسلمين الأولين من الخلفاء الراشدين يضربون الأمثال  
في تحقيق العدل إلى أبعد مدى وأسمى غاية . فهذا عمر بن الخطاب يقيم الحد  
بنفسه على ابنه ، وبأبي إلا أن يعضى الجراء في جبلة بن الأيهم عندما استمداه  
عليه أحد بني فزارة ، وإذا يمتز أمير الفساسنة بسلطانه وعلو مكانته وشرف  
محتده ويعترض على إمضاء العقوبة فيه من أجل أحد السوقه يحميه عمر بحزم  
وقوة يقين : وقد سوى الإسلام بينكما فلا تفضله إلا بالتقوى ، وآثر عمر أن  
يفقد الإسلام هذا الأمير ويفقد بفقد نصرته أقوياء على أن يتهاون في تحقيق  
العدل عالمًا بنافذ بصيرته وصدق إيمانه ، إن الإسلام يخسر كثيرًا بالتهاون في  
إقامة العدل ، وأن روح الإسلام وسمو تعاليمه وعدله الشامل كفيلة بأن  
تموضعه عن جبلة وأعظم من جبلة بمن يحتذبه من الشعوب التي دخلت في  
دين الله أفواجًا .

وهذا عمر يقول في كتاب له إلى سعد بن أبي وقاص : أما العدل فلا  
وخاصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء ، والعدل وإن رمى ليسا  
فهو أقوى وأعلف للجور وأقبح للباطل .

وحرص الإسلام على حسن اختيار القضاة وتوفير الكرامة والاستقلال  
لهم ، وتوفير الضمانات والطمأنينة للخصوم حتى في النظرة والالتفاتة ، وذلك  
ليتحقق للعدل أقوى ضمان ، وبذلك يسمو الإسلام بمبادئه في تحقيق العدالة .  
فوق أحدث النظم التي تنبأها بها أعرق الحضارات القائمة . انظروا إلى عمر

كيف يوفر الضمانات والمساواة للخصوم في تحقيق العدالة في كتابه إلى أبي موسى الأشعري : «أس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يأس ضعيف من عدلك» ، وانظروا إليه وهو يضع أسس التقاضي ويرسم حدوده ويدعو إلى الوثام في حله ويمجد الرجوع إلى الحق إذا انضح سبيله : «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» ، والصلح جائز بين المسلمين إلا لصاحبا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يفتك قضاء قضيتة اليوم فرجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من القادى في الباطل ، مع استغناء الحق المكتسب وقوة الشيء المقضى به ، ذلك ما قضينا وهذا ما نقضى ، ويناشد القضاة الحلم وسمة الصدور في تحقيق العدالة فيقول : « وإياكم الغشاق وضيق الصدر ، والضجر والتأذى بالخصوم والتثكر عند الخصومات فإن الحق في موطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر » . واسمعوا كيف يتشدد على بن أبي طالب في اختيار القضاة لتتوافر فيهم ضمانات العدالة وكيف يوفر لهم من الكرامة والاستقلال والمسكنة وبسطة الغيش ما يجعلهم بمنجاة من وسائل الإغراء والضعف الذي ينشأ عن مطالب الحياة ومظاهرها . يقول في عهده الملائمة النخعي حين ولاء مصر : ثم اختر للحكم بين الناس أفضل وعينك في نفسك من لا تضيق به الأمور ولا يحكم الخصوم ولا يتنادى في الزلة ولا يحصر من القي إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على الطمع ، لا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم في الشبهات وأخذهم بالحجج وأقلمهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند انضاج الحكم ، من لا يردهيه إطرار . ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل عنه وتقل معه حاجته للناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن اغتيال الرجال عندك . فانظر في ذلك نظرا بليغا .

### هذه هي العقيدة الصادقة

الإسلام وما أكثر مفاخره وآياته ، عجب أمره ، وغريب شأنه ، كيف استولى على القلوب والعقول والأرواح والمشاعر ، في عهد النبوة ، هذا الاستيلاء العجيب الغريب ، الذي ليس له شبه بين العقائد والمذاهب والأديان ، فهذا بلال وقصة إيمانه معروفة ، بلال الذي يقول فيه عمر : أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا ، أما أبو بكر فقد ساد بسيفه إلى الإسلام ، وصدق إيمانه وعظيم بلائه ؛ وأنه صديق الرسول : كان المؤمن الأول ، والصاحب الأول ، والخليفة الأول . وأما هذا العبد الذي ساد المسلمين ، وشهد بسيادته عمر ؛ وكان إعتاقه نغراً لآبي بكر وتسنية لمقامه ؟ هذا العبد المعتق ، بل السيد المسود ، هو بلال المؤذن ، عبد رقيق من أمة حبشية ، أما أبوه العربي القرشي فكان أول جان عليه ، ألقاه إلى الحياة وشلاه ، وبرى منه كما يرى من عترة العبدى أبوه شداد . وكان في شريعة العرب في جاهليتها أن تتخذ الإمام سودا وبيضا ، فإذا ولدت لأحدهم أمة نبي الولد وأنكره ، فلا ينسب إليه ، ولا ينال من رعايته ، ولا يرث من ماله ، ويرسل كأمه ملوكاً رقيقاً ؛ ومتاعاً من سلع الحى يباع ويشترى ، ويوهب ويهدى ، كان ذلك فساداً وظلماً ، ولكنه ظلم تقرر كأنه الحق ، ومنكر اتبع كأنه الواجب ، وكأش مرة كرع بلال نصيبه منها ، فنشأ نشأة الرقيق ، يسخر في حل المناع وجمع الحطب وخدمة الحيوان ، وما كزله أن يتطلع إلى خدمة كريمة ، كخدمة قرس ، أو إعداد سلاح . ولا كان له أن يفتى مجالس السادة إلا غادماً مأموراً ، ناكس الرأس ذليل الطرف ، على أن بلالا قد حياه

الله حلوة في الصوت وجمالاً في الإلقاء، وربما غنى وهو يعمل عونا لنفسه .  
فإذا مر به سيد من العرب قطع غنائه وكنتم صوته . وربما رفع صوته يحدو  
الإبل سيرها حين رواحها وغدوها . وعلم به شباب قريش ، فاستمعوا إليه  
وطربوا لصوته ، فإذا جاء الليل وخرج القتيان إلى بعض شعاب الجبل يلعبون  
ويسمرون ويلهون ، شاقهم الغناء وذكروا بلالا فاستدعوه وكفوه أن  
يغزبهم ، ويستخفهم الطرب فيناسون أن بلالا عبداً رقيق ، ويقرّبونه منهم  
ويشركونه في سمرهم ، فتتكشف نفسه لجلسائه عن سمر راجع العقل ،  
حلو الحديث ؛ حسن البيان ، بلا عروقه دم عربي . وشاع لبلا بذلك  
ذكر حسن ، ورفع عن أعمال العبيد ، ونذب للتجارة والرحلة إلى الشام  
واليمن — وهي أشرف أعمال قريش ، وأنبل ما يحترفون ، وتبيأت له  
بذلك عيشة جديدة من حقه أن يرضى عنها ويقتبط بها . ولكن نفس بلال  
كانت أنبل من رأى سادته فيه ، بل كانت أنبل من نفوس جمهورهم ، فلم  
يقبل تلك العيشة اللاهية اللابة في شبابهم ، ولا رضى تلك الحياة الظلمة  
العامّة في شيوخهم ، وضجر بما حوله من فساد وظلم . وكان في مكة جماعة  
من العقلاء قد سموا عن جاهلية العرب وما فيها من شرينشاً عليه صغبرهم ،  
ويتورط فيه كبيرهم . وكانوا يجتمعون ويذاكرون هذا في مجالسهم بالكعبة  
وفي سمرهم بعيداً عنها ، فنهت من حرم على نفسه الخمر ، وزين للناس  
هجرها ، ومنهم من دعا الناس إلى حلف ليصرن كل مظلوم . كان من هذه  
الجماعة أبو بكر ، وكان سيدهم الأمين محمداً قبل البعثة . واتصل بذلك الجماعة  
بلال ؛ فإذا هم يرضون صحبته ، ويحمدون رأيه وسيرته . وإذا هو يرى  
فيهم أصدقاء قلبه وأصفياء نفسه . وتتوفا الصدقة بينهم — صداقة  
الخير وحب الإصلاح . وتلك صداقة يكون فيها الكثير واحداً ، والمتعدد  
فرداً . تفنى الأشخاص في النفاة . فإذا هم رجل واحد . يروى الطبري

أن قافلة ذهبت إلى الشام بتجارة فيها جماعة من دوس قريش ، وفيها الأمين محمد قبل رسالته . وطراً له في الطريق بعض المدر ، واضطر أن يعود ، فلم يخطر له عودته إلا بلالاً . وكذلك رفعت بلالاً نفسه ومواهبه إلى أشرف أعمال العرب ، وإلى أسنى جماعاتهم . وما هو إلا أن أذن الله بالخير ، وأوحى إلى رسوله بشرعته ، حتى كان من أول المؤمنين أبو بكر وبلال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعو إلى الله سرا : « من اتبعك على هذا الدين ؟ » ، فقال : « رجلان : حروعيد ، وكان الحر أبا بكر ، والعبد بلالاً ومضى بلال في حملة سيده يعبد الله سرا ، ويستمع بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فيروي بأيات الله قلبه . ولكن سره قد فشا وأطلع سيده على ما يكتم من إيمانه ، فسأله : أحق يا بلال قد استخفك محمد فعصيت وكفرت باللائ والعزى ؟ » ، فقال : « ما استخفني محمد ، وما عصيت . وإنما هداني الله ، وأرشدني الرسول الأمين محمد ، فأشئت أنه لا إله إلا الله واحد ، لا يعبد سواه ، ولا يشرك معه غير من حيوان أو إنسان أو حجر . » فقال موله : لقد تكلم العبد ، وغلبه سحر محمد ، فالعبد يخير الأرباب ، والقيين بين الأديان ؟ — يوم يكون له أن يختار سيده ، ومالك رقه ، أو يتصرف في شيء من المال بيده . فليرق بصرك إلى السماء ، وتعلم إلى المفاضلة بين الأرباب . ولكننا — أيها العبد — أحسننا إليك ورفعنا من قدرك ، فدعناك سوء الطبع ولؤم النفس إلى فكران جميلنا ، والخروج على ديننا ، والكفر بألهتنا . فإن لم تعبد آلهة سيدك فما أهون أن يراق دمك كما يراق في جانب من البادية دم الشاة . قال بلال : لا بأس بالموت يا مولاي ! هو سبيل كل كل حي ونهاية كل حياة . ولما أحب إلى من الضلالة والكفر ، وحياة الفساد والذل ، قال السيد : إن ابن الأمة ليتشجع فيبدى زهاده في الحياة واستخفافاً بالموت . وهو — إن رأى السيف — عائد إلى رشده ، فقد علمنا

من دين العبيد أنه لا يملأ عقل العبد هوى وقلبه طاعة إلا المعصاة والسيف .  
قال بلال : ما يعيب ابن الأمة — ياسيدي — ولا ابن الحر أن يتشجع ،  
ولا يحتاج إلى الشجاعة حتى يستخف بالموت ، وثارت ثورة الغضب في نفس  
أمية بن خلف مول بلال وسيد بني جبع ، وصرخ لمن حوله : خلوا العبد  
إلى الموت ، ومعنى بلال هادى النفس ، مطمئن القلب ، يتلقى الموت الذى  
أمر به سيده . وفكر أمية : إن قتل بلالا فإكان إلا خسارة عليه وضياعا  
من ماله ، فخير له أن يستبقى ويستصلح ، وأن يرهق عذاباً حتى يرجع . ونادى  
خادمه : أن أمسكوا عن قتل العبد . أما بلال فقد آمن أن الله اشترى من  
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وما يملك العبد إلا نفسه ، فقد  
باعها لله واستريح الثمن . وعاد أمية إلى بلال ينصحه ويحذره ويخوفه وينذره  
والمؤمنون يساءلون بما بينهم ، ولا يترجون عن دينهم ، فقام أن يعذب ويثقل  
به حتى يترج عن عثاده . فقاما شؤم العبد على نفسه . ويعرى بلال من أثوابه ويلبس  
درعا من حديد . ويحكم وثاقه ، ويلقى في حرة من حرام مكة ضاحيا للشمس  
المحرقة ، ويحصى حديد الدرع فيكوى جلده ويشوى على هيئة يطيلون عذابه ، وهو  
صابر محتسب ، ويقولون : عد يا بلال عن دينك ، واعبد الآلات والعزى . فيقول :  
أحد ، أحد ، إنما هو الله أحد . ويشمت بلال من يشمت ، ويشقع فيه من  
يشقع ، ويذكر أمية من خلق بلال أنه عبد عتيد أبى ، وأنه إذا شرب ميمنا  
لم يلبث أن يذل . فقام به أن يشوه منظره أقبح ما يرى ، وأن يلبس أخزى  
ثياب ، وأدعاه للزور والسخرية ، ويقاد بحبل في عنقه ، ويجمع حوله الصبية ،  
ويطاف به حول الكعبة في موكب صاحب ساحر . وكان تدير آليا ألباغ  
من نفس بلال وارهقها إرهاقا ، ولكنه الإيمان يحلو به المر ، ويلذمه الألم ،  
ويكون احتمال الألم في سبيله إغرازا . وطاف موكب الصبية ينادى بلال :



هذا الكافر بدين اللات ١ . ونادى العاطفون عليه : عد لدين اللات والعزى  
لتنجو من موقف الذل وعذاب الهون . وبلال يجيبهم : ، أحد ، إنما هو  
الله أحد .

وأحسن أمية عجزه أمام بلال ، واستشعر استنقار العرب له ، إذ لم يملك  
عبداه ولم يستطع في أمره حولا . وسعى الساعون إليه : لقد ملأت البيت  
بعبدك منجيباً وصحبا . هلا هذبتك أو حبستك وأرحمت الناس منه ؟ فسأسي  
أن تصنع إن وثب بك فتى من قومك ؟ أوصيا إلى دين محمد أحد من أهلك ؟  
وكان أبو بكر الصديق يعلم هذا ويضيق به ، ويود لو أستطاع أن يقضى صديقه  
في الجاهلية وصاحبه في الإسلام ، ورفيقه في السبق إلى الدين الخنيف .  
فسعى حتى اشتراه وأعتقه ، واتخذ الرسول أمينا له وغازنا . وعذب المسلمون  
بمكة ما عذبوا ، حتى أخذ لهم في الهجرة فهاجروا ، ثم قاتلوا وقتلوا ، ومنعوا  
— وبلال بجوار الرسول في صبره ويسره ، حتى جاء نصر الله والفتح ،  
ودخل المسلمون مكة فاتحين غائبين ، وحطمت اللات والعزى ، وقام بلال  
على ظهر الكعبة يؤذن : الله أكبر ، الله أكبر . فتردد صدهاء أرجاء مكة ،  
ويجيب دعاءه سادة العرب . أي نازل العيد ١ بل أي فوز أدرك  
دين الحق ، وأي آية لله تعالى في طي هذا الفوز ؟ وليد منى ، وعبد ممين ،  
وغريب مخدول ، يقوده الصبية بجبل في عنقه ، حذو مكة الصغير وسخرية  
الكبير — يضع اليوم قدمه في رؤوس الأصنام ، ويقوم على انقاض العصبية  
وأطلال الجاهلية يؤذن بتداء الحق : الله أكبر ، الله أكبر . . إنها لآية  
من آيات الله أن يكون أول مؤذن باسمه في بيته هذا العيد الحبيب المفضي  
المنقذ . وإنما العبرة أن يعد له بالأمس موكب الصبية يمتفون باسم اللات ، فيقوم  
اليوم في جيش من المسلمين ينادى من أعلى البيت باسم الله وحده : ، الله أكبر ،  
الله أكبر ، لا إله إلا الله .

وفرت عين بلال بما نال الحق من القوز ، فهل علم أن تدامه هذا سيملا الدنيا وتردده أقطار العالم ؟ أكان يقدر هذا ؟ أكانت تبلغه آماله ؟ بل ! تعلمه وآمن به ، وقرأ كلمة ربه : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . فما ارتاب وما كان للؤمن أن يرتاب . عاد بلال إلى المدينة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، أميته وعادته وصاحب الدعوة إلى الصلاة ومؤذنه ، حتى أراد الله لتبنيه خير الدارين ، وسدعت قلوب المسلمين وذملوا ، ثم تابوا إلى أنفسهم ، وتجمعوا حول الجسد الكريم مسجى ، وقام بلال يؤذن . الله أكبر الله أكبر . ويشتمل وجه الرسول وبشره وإيمانه وعزمه ، وأنه كان ملء القلب ، ملء العيون ، بل ملء الدنيا ، حياة وهدى ومعاني من الإيمان والذكرى ، فاض بها قلب بلال فتمثلت في ندائه : الله أكبر الله أكبر . ثم أفاق وأفاقوا إذ نادى : حي على الصلاة . وأقبلوا على صلاتهم فكان هذا آخر صوت رقه بلال بالأذان في المدينة . وجهده أبو بكر أن يؤذن بعدها ، واشتد عليه عمر . فاقى ، ثم أبى وقال : ما أملك صوتاً أرفعه بالأذان بعد ، ولكنى ، يا خليفة الرسول ، قد سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : خير الأعمال بعد الإسلام الجهاد . ولا جهاد اليوم بالمدينة فأرسلنى إلى الثغور ، فإبلال من سمع ولا بصر ، ولا يد ولا قدم إلا الله ، فهمى فأنية في سبيل الله ، وأحب أبو بكر أن يبقيه معه ناصحاً ومشيراً ، ومحدثاً بما علم من حديث الرسول وسنته ، فقد كان طويلاً الصبية كثير الخلق ، ولكن بلالاً لم يعرف مذ كان عبداً إلا أن يرى رأى فلا يرجع عنه ، وما يحاول إلا أفضل الأعمال . وقد علم أن خير الأعمال الجهاد ، فلا بد له أن يجاهد . وأرسل إلى الشام إلى خالد بن الوليد أميننا وخازننا . كما كان مع الرسول . ومضى لربه أبو بكر ، وجاء عمر وعزل خالداً وولى سعداً

وكتب إليه أن يشاطر خالداً ماله ، ورد نصفه إلى بيت المال . فتقدم سعد  
وسلم بلالاً نصف مال خالد ، ولكنه تردد أن يقاسمه شيئاً من المال ،  
وأحب أن يحامل خالد ، إغزازاً لقائد . وبقيا أمير على أمير . فقال بلال  
لسعد في قوة وعزم : إليك كتاب أمير المؤمنين فأقرأه وقف في التنفيذ عند  
مارس فيه ، وسلم خالد بما أراد بلال وهو يقول : نطيع الأمير ونعظم المولى  
ولنا هم للسليين ملك الشام ، وحضر عمر من المدينة ، دعا بلالاً أن يؤذن بين  
يديه فأجاب بلال : أما الآن فنعم . ما يمنع العبد أن يسعد بهذا المسجد ،  
وأن يكون أول رافع للصوت بأذان الصلاة في المسجدين المكرمين :  
المسجد الحرام ، المسجد الأقصى .

هذا هو الإسلام في أبطاله ، وهؤلاء هم أبطال الإسلام في إيمانهم ،  
وقوة عقيدتهم وإليك مثلاً آخر :

لما سار عمرو بن العاص بالجيش الإسلامي إلى الشام ومصر وانتهت  
رسالة المقوقس إلى عمرو أخافهم يومين وليثين ليروا حال المسلمين .  
فخاف عليهم المقوقس . وقال لأصحابه : « أترون أن العرب يقتلون الرسل  
ويستحلون ذلك في دينهم ؟ » فقالوا : لا . ثم أطلقهم عمرو ومعهم  
رسالة يقول فيها للمقوقس : ( ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث : إما الدخول  
في الإسلام لتكونوا إخواننا ، ويكون لكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإما  
الجهزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما القتال حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير  
الحاكمين ) . فلما رجعت رسالة المقوقس إليه قال : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا :  
رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة  
وليس لهم في الدنيا رغبة ولا نعمة ، لا يعرف رقيمهم من وضعهم ، والسيد  
منهم من العبد ، وأميرهم كواحد منهم ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخاف منها

أحد ، يفسلون أطرافهم بالماء ، ويخضعون في صلاتهم) . فقال عند ذلك المقوقس ( لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتالهم أحد . فإن لم تقتتم صلحهم اليوم — وهم محصورون بالنيل — فلن يجيبوا بعده إذا أمكنتهم الفرس ، وقدروا على الخروج من موضعهم) . ثم طلب إلى عمرو أن يبعث إليه رسلا يكلمهم . فبعث إليه عشرة رجال أحدهم عبادة بن الصامت البطل المغوار ، فكان لما قاله بين يدي المقوقس : (إني بحمد الله ما أهاب ماؤه رجل من عدوى لو استقبلوني جميعا ، وكذلك أصحابي ، فأنما رغبنا وحثنا الجهاد في الله ، واتباع رضوانه وليس غزونا وحربنا لرغبة في دنيا ، ولا طلب الاستكثار منها ، فأبالي أحدنا أن كان له قططار من ذهب ، أم تكن لا يملك درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لئله وتماره ، وشمله يلتحف بها . وإن كان له قططار من ذهب أغرقه في طاعة الله ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورغاءها ليس برغاء . إنما النعيم والرغاء في الآخرة . وبذلك أمرنا الله . وأمرنا نؤينا ) . فلما سمع المقوقس ذلك لعنه قال من حوله : ( هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ) ، واستأشار أصحابه ورؤساء الروم في مصالحة العرب ، فلم تفته الشورى إلى السلم (١) ، بل أخذتهم العزة بالإثم . ونازلوا العرب في مواقع عدة انتهت بنصر العرب . وتم لهم فتح البلاد سنة عشرين من الهجرة السريية

وشبهه بهذا ما كان بين سعد (٢) ورستم (٣) إبان فتح البلاد الفارسية . فقد

(١) عدم الحرب .

(٢) هو سعد بن أبي وقاص . الصحابي الجليل . والقائد الأعظم . فاتح البلاد الفارسية في خلافة عمر بن الخطاب .

(٣) من أعظم قواد الفرس . وقد اختاروه من بين قوادهم لمقابلة سعد ، وجهزوا جيشا كبيرا فيه ٣٠.٠٠٠ مقاتل وكان جيش سعد ثمانية آلاف

ترددت بينهما الرسل ؛ وتوالت السفارات ، فرأى رستم من ثبات رسل العرب ورباطة جأشهم ، وقوة حجتهم - ماملا نفسه دهشا وإعجابا . يذهب البدوي إلى رستم فيراه جالسا على سرير الذهب والوسائد والفرش منسوجة من الذهب أيضا . وحوله العجم على الأرائك بالتيجان البراقة . والزينات الباهرة . والأفيال تحيط بالمجلس إرهابا وتخويفا - فيدخل البدوي عارضا رحه ، متقلدا سيفه . متكبيا قوسه . فيربط فرسه قريبا من سرير رستم ، فيصيح عليه العجم الحاضرون . ويهيمون بمنعه . فيردم سيدهم ، ويستدق العربي منه فيمشي إليه متكئا على رحه . يطمئن به ذلك الفرش وتلك الوسائد . فيمزقها وهم ينظرون إليه ويدهشون لجرأته ، وعدم مبالاته . إذ لا عيب لهم بمثله . فاذا وصل إلى رستم أصغى إلى حديثه . ثم رده عليه ، وراجعه فيه غير هياب ولا وجل . فكان كبير الفرس يسمع من العرب إجابة مسددة ، وحكمة راتعة . ويرى منهم جناتا ثابتا ، ورأيا صائبا ، فمن ذلك أن سعدا رضي الله عنه كان يبعث إليه في كل مرة رسولا غير الذي أرسله من قبل - فقال رستم لبعض من أرسل إليه : ( لم لم يأت رسول الامس ) ؟ قال : ( لأن أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء ) وقال يوما لعربي يقبض على ردهم قصير ( ما هذا المفضل ؟ الذي في يدك ) فأجابه : ( إن الجرة لا يضرها قصرها ) . وقال مرة أخرى لبدوي : ( إني أرى سيفك رثا ) ، فأجابه : ( إنه حلك اللهم حديد الضرب فقال رستم لأصحابه - وقد رأى ما هاله : إن هؤلاء القوم غاية في الشدة والقوة لا يقف أمامهم أحد ، فصاحوا حوله وقالوا : ( لا نترك ما أنت عليه شيء ) رأيتهم هؤلاء ، وروى أنه لما قدم العرب لفتح مصر وحاصروا حصن ( ١ ) بابليون ، وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس ، قرأوا من العرب الحرص على قتله والصبر على القتال ورغبته فيهم ، فأرسل

( ١ ) حصن قديم جنوبي القاهرة على مقربة من جامع عمرو

المقوس إلى صروب العاص قائد الجيش الفاتح يقول له : إنكم دخلتم في بلادنا والحقتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وأنتم عصابة بسيرة (٣) وقد حصرتمكم الروم وجعلوا اليكم جيوشا عظيمة معها العدة وال سلاح وأحاطوا بكم هذا النيل ، فأنتم أسارى في أيدينا فأبعثوا إلينا رجلا منك نسمع من كلامهم ففعل الأمر يأتي بيننا وبينكم على ما نحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تنفثواكم الروم ، فلا ينفذنا الكلام ولا تقدر عليه .

ما شأن هذه العقيدة القوية الجياشية الساحرة الطاغية ، إن سرها فيها نفسها ، إنها عقيدة القوة والحرية والسلام والعزة ، إنها هي التي رفعت نفس بلال ومن آمن بها إلى هذا المستوى الرفيع من الكرامة والعزة ، وهي التي ملأت قلوب المسلمين بروعتها وبساطتها وصدقها ، وبما فيها من حق وقوة وخير وإنسانية وسحر ، مما شهدت به حتى أعداء الرسالة الإسلامية ، فهذا أبو سفيان يشهد لمحمد ورسالته وهو أشد الحائقين عليه والمحاربين له ، قال أبو سفيان من حديث طويل :

« انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينما أنا بالشام إذ جئني بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، يعني عظيم الروم ، وكان « دحية الكلبي » جاء به ، فدفعه إلى عظيم « بصري » فدفعه عظيم « بصري » إلى « هرقل » فقال هرقل : « هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ » قالوا : « نعم . » ، فدعيت في نفر من قريش ، فدعشنا على « هرقل » ، فأجلسنا بين يديه ، فقال : « أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ » فقال أبو سفيان : « أنا . » ، فأجلسوني

(٣) أصل العصابة : الجماعة الصغيرة من الرجال لا تزيد على الأربعين

بين يديه ، وأجلسوا أصحابي خلفي ، ثم دعا لترجمانه فقال له : « قل لهم إلى  
سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبى ، فإن كذبتى فكذبوه . » ، فقال أبو  
سفيان : « وإيم الله لولا عاقبة ان يؤثر على الكذب لكذبت . »  
ثم قال لترجمانه : « سله كيف حسبه فيكم ؟ » قلت : « هوفينا ذو حسب . » ،  
قال : « فهل كان من آياته ملك ؟ » قلت : « لا » قال : « فهل كنتم تهمونه  
بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ » قلت : « لا . » قال : « ومن يتبعه ؟  
أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ » قلت : « بل ضعفاؤهم » قال : « أيزيدون أم  
ينقصون ؟ » قلت لا بل يزيدون ، قال هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد ان يدخل  
فيه سخطه له ؟ قلت ( لا ) ، قال : ( فهل قاتلتموه ؟ ) قلت ( نعم ) قال : ( فكيف  
كان قتالكم إياه ؟ ) قلت ( تكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب  
منه ) قال : فهل يذدر قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو صانع  
فيها . - فوالله ما أمكنتنى من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه . قال : ( فهل  
قال هذا القول أحد قبله ) قلت : ( لا ) قال لترجمانه : ( قل له : إلى سائلك  
عن حسبه ، فرمعت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تبعث في أحساب  
قومها . وسألتك : هل كان في آياته ملك ؟ فرمعت أن لا . فقلت لو كان من  
آياته ملك ، قلت رجل يطلب ملك آياته . وسألتك عن أتباعه : أضعفاء  
الناس أم أشرافهم ، فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل . وسألتك :  
هل كنتم تهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال . فرمعت أن لا ،  
فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يذهب فيكذب  
على الله . وسألتك : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد ان يدخله  
سخطه له ؟ فرمعت أن لا . وكذلك الإيمان إذ خالط بشاشت القلوب .  
وسألتك : هل يزيدون او ينقصون ؟ فرمعت انهم يزيدون ، وكذلك الإيمان  
حتى يتم . وسألتك : هل قاتلتموه ؟ فرمعت انكم قد قاتلتموه فتكون الحرب

بينكم وبينه سجالا ، ينال منكم وتنالون منه . وكذلك الرسل تبلى ، ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك هل : يقدر ؟ فزعمت انه لا يقدر ، وكذلك الرسل لا تقدر . وسألتك : هل قال هذا القول أحد قبلك ؟ فزعمت ان لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد قبلك قلت : رجل أتتم بقول قيل قبلك . ثم قال : « بم أمركم ؟ » قلت : « يا مرنأ بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف . » وقال : « إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي وقد كنت أعلم انه خارج ولم أكن أظنه منك . ولو أني أعلم اني أخاها لآحبيت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . وليبلغن منكم ما تحت قدي . »

ان النفس الإنسانية لتقبل على الاسلام إقبال الظامى . على الماء العذب ، وتقبله بقبول حسن إلا من أضله الله ، وما اصدق ما يقول رسول الله صلوات الله عليه وسلم :

مثل ما يعنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث اصاب أرضاً ، فكان منها نقيية قبلت الماء ، فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها اجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما يعنى الله به ، فعمل . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى ارسلت به .



### دين الله

الإسلام دين الله الحق ، وشريعته الحكيمة ، ورسالته إلى الخلق كافة ، أنزلها على محمد بن عبد الله ، وجعله بشيراً ونذيراً ، يهادي إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً .

إنه بحق دين الله ؛ والله من وجل هو الذي أراد له الحياة والبقاء ، بل هو الذي مهد لهذا الدين ، وحاماه بكشف رعايته الأمين ، وبحبل عنايته المستنير .

والآيات هي التي كانت تكشف للناس من عهد إسماعيل بن إبراهيم إلى اليوم عظمة هذا الدين وجلاله وسعوه ، وهي التي تظهر مزيد عناية الله بمحمد ورسالته وأول بشارته بالإسلام كانت بمكة قبل ميلاد الرسول بعشرات السنين ، وعلى يدي عبد المطلب جد محمد الرسول الأمين ، صلوات الله عليه . وكان عبد المطلب (١) سمح الطبع ؛ رضى النفس ، سخي اليد ، حلوا العشرة ، عذب الحديث ، وكان أيضاً قوى الإيمان ، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنها لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً أبوه من مكة حيث التجارة والثروة ، وحيث السكر والدهاء ، وحيث الوثنية السهلة التي لا تخرج فيها ولا مشقة . وأمه من يثرب حيث الزراعة والصناعة البسيرة ، وحيث اليهودية تجاوز الوثنية فتضعفها ، وتنزه من ظلمها ، وتكاد يمحوها ، وحيث الأخلاق اللينة ، والتمائل الحائرة ، وحيث الظروف ونعومه الحياة . ولد في يثرب ، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة فنشأ بين أخواله ، وتأثر بحياتهم ، وتخلق بأخلاقهم وسار سيرتهم ، حتى بلغ الشباب أو كاد . ثم أقبل عمه فأنزعه من

(١) على هامش السيرة

أقلية السبل حين إلى أقلم آخر صعب عسير تجذب فيه الأرض . ولا يتقسم له السبيل إلا قليلا . يرحل أهله إلى الآفاق ، ويقعد إلى أهله الناس من جميع الآفاق ، فهم ياخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الأخلاق والشبائل كما يبادلونهم المنافع وغروض التجارة . ولعل أخلاق يثرب ، وخصال مكة قد اختصمت في نفس هذا الغلام ولعل اختصاصها قد قصر ، ولكنها على كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتدال آخر الأمر فلم يكتمل الفتى شيئا به حتى كان قفى من قریش ولكنه يمتاز من بقية فتيان قریش ففيه ذكاؤهم وفظنتهم وفيه أباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دقة لم تكن مألوفة عندهم وفيه شدة في الدين فلا كانوا يرضونها أو يسمونها لها . على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز فلم يكن يصدر في حياته — كما كانوا يصدرون — عن الروية والتفكير وطول التدبر وإنما كانت تدفعه إلى العمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويبقى غلبها ويغلو في الإباء . ولكنها يضطر إلى أن يذعن لها ويصدق بأمرها . وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة ، تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة قد ملكت عليه حسه وشعوره فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا ملك لها خلافاً . وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخاليل بين الصورة يلم به إذا اشتغله النوم فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمر وتنتهى إليه مرة تالفة صوتاً رقيقاً ، ولكن مملح يلا أذنه فأنما يحثه على أن يأتى كذا وكذا من الأمر . وكان في هذا الصوت غرض وكان في هذا الصوت إيهام وكان في هذا الصوت جلال ، يصدره هذا الغموض والإيهام وكان الفتى ينسكبه ويرتاع له وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت وهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتى يؤيسه من نفسه ويلزم به فيكثر اللامام . ولم يكن هذا الصوت يقع في اذن الفتى بالفاظ كالتى تقع

وفي حين قد هذا من حوله كل شيء ؛ واعلم أن في نفسه وجسمه كل شيء ، ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل إليه ساعياً إليه في أناة حتى إذا دنا منه ، قال له في صوت رقيق غريب ، فيه أنس و وفيه وحشة . « احفر برة » . وجسم الفتي هادئ . مطمئن ، ولكن نفسه نائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ؛ وصوته ينبعث من بين شفتيه خفياً رقيقاً بهذه الكلمة : « وما برة ؟ » فينصرف الشخص ، وينقطع الصوت . ويفيق النائم وجلاً مذعوراً ، معجباً آملاً ، ويفكر ويقدر ويتقلب . ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة ؛ ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ؛ ويسأل أصنام الكعبة ، ولكنها مفرقة في البله والوجوم ويضيق الفتي بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام ، فيبهم على وجهه بالتمس في الحركة والاضطراب تسيان هذا الطائف الذي يفرضه ويفرضه . ثم يعمل الناس في أمور الحياة ، وينقض النهار بخيره وشره ، وحلوه ومره ، ويقبل الليل شيئاً فشيئاً ، فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام ، وما يزال يمتد في هذه الأودية حتى يغمر كل شيء . ولولا هذه المصابيح الضئيلة التي تشب في الأرض ، وهذه النجوم القليلة التي تضرب في السماء وقد لعب الفتي مع السامرين ، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار ، هذا يحدث عن قصور بصرى وعظمتها ، وهذا يحدث عن الخورق والسدير ، وهذا يصف أخلاق النجاشيين ومكرم بالتجار ، وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب ، وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأدم في الحبيشة ، وهذا يذكر للقرم ما حل لهم من غمر بيسان . وهم في أثناء هذا كله يتندرون على العجم والاعراب ، ويتفكرون بأحاديث أولئك وهؤلاء ، ويسخرون من أولئك وهؤلاء ، حتى إذا تقدم ( ٤ )

الليل ، واطمان كل شيء . — تفرقوا ؛ ونهض الفتي ثقيلًا ؛ فثنى إلى بيته متباطئًا يود لو فر من النوم ، ويود منع ذلك لو قام فألم به هذا العفيف .

أنظر إليه انه ليردد : أيقظ بنفسه في أمواج النوم هذه التي تتمثل أمام عينيه ؟ أم يبقى على الشاطئ . يقظان يداعبه النوم ولا ينام . ليردد ما استطاع ؛ ليتنحى على النوم ماوسعه الامتناع ، فان هذه الأمواج المصطنعة أمامه تستطيع أن تغطي على نشاطه . فتغمره ، وتعمر معه كل شيء . وكيف يستطيع هذا الفتي أن يمتنع عنها ، وما استطاعت أن تمتنع عليها جباله . هذه التي يحيط بها من كل ناحية . انظر أترى حركة ؟ اسمع أسمع نياة ؟ كل شيء هادى . كل شيء مطمئن ، فأنبوك يوما امتناعك ، فلم إلى النوم ، لانخف شيئًا ، إن هذه الأمواج تريح ولا تفرق . أقبل إلى هاتين اندراعين اللذرايين اللتين تمتدان إليك ، فتثنى بينهما كل شيء . ومن يدري ؟ لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة وأطبق الفتي جفنيه ، واندفع أمامه ، فاشتعلت عليه أمواج النوم كما اشتعلت على غيره من الناس والأشياء ، ولكن ماذا ؟ هذا شخص يتقدم ساعيا هادئًا ، كأنه يمشي على الهواء . حتى إذا دنا من الفتى قال في حذوت رفيق غريب ؛ فيه أنس وفيه وحشية : احفر المضنونة . جسم الفتى هادى . ولكن صورة من لمحة قد ارتسمت على جبهته ، وهذاتوت خفيف وقيق ينبعث بين شفتيه ؛ وهو يقول : « ما المضنونة ! » فتصرف الشخص ، ورفيق الفتى مذعورًا مأخوذًا ، قد أظلم في نفسه كل شيء . وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره ، لا يرتفع بصره إلى السماء ، ولا ينخفض إلى الأرض ولا يمتد إلى أسنام الكعبة ، ولكنه يدور حائرًا . ونهض الفتى وهو يقول

وما أدري إلا أني سأجن لئن أصبحت لأتبع الكاهن ؛ فعلى أجد عنده من هذا العارض شفاء . وأقبل إليها الصبح أسرع في الخطو أرفق بهذه النفس الحائرة ، هلم إلى سوطك المشرق المضيء ، فبدد به هذه الاشخاص المائلة ، فرق به هذه الظلال المضطربة من حولي ويقاضى الفتى ليلاً طويلاً ثقيلًا ، حتى إذا كادت الشمس بضوئها النقي ظواهر مكة وبطاحها ، أسرع الفتى إلى المسجد ، يريد أن يهص أمره على الكاهن ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش في فناء المسجد حتى تذهب عنه حيرته ، وبفارقته وجومه ؛ ويمتدق قلبه قلبه ألهثثاً وثباتاً . ماذا ؟ أزعج للكاهن أني مجنون ، وتشيع في هذه المقالة ، ويضحك مني حرب ابن أمية ولداته ، ويتندر على فتیان مخزوم ، كلا ما أكثر هذه الخيالات التي تسكن إلى نفسها في قبور الموتى وتختفي في الكهوف والأغوار ما أضاعت الشمس ، واستيقظت الطبيعة ، فإذا أظلم الليل ، ونام الكون ، وانتشرت هذه الخيالات في الجو ، فتها ما يصعد في السماء برعى النجوم ؛ ومنها ما يهبط إلى الأرض يروع الناس ، وما أرى أن هذا الطائف الذي يورق منذ ثلاث إلا خيالاً من هذه الخيالات ، لعله ظل ميت من موت قريش قد نسيه قومه ، فهم لا يزورونه ولا يقرنون إليه ، لعله شيطان من هذه الشياطين التي تلح على الإنس فتتأصم الطاعة . وتخضعهم لسلطانها كرهاً لله تدير من أحد الآلهة يطالب بالضحية والتزيان . لقد مضت أيام ولم أقدم إلى الآلهة شاة ، ولم ينجر فما جزور ، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القاني الذي تحب الآلهة لونه ورائحته ، إيه يا عبد المطلب تقرب إلى الآلهة بضحية ترضهم لعلمهم برضوني ، ولعلمهم يسكنون عنك هذا الشر . وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش ، فتحدث وسمع ، ولكنه كان شارد النفس ، فلم يعال الحديث ولا الاستماع ، ونهض مولياً فلما أنصرف عن القوم ، قال حرب بن أمية

لمن حوله : « أرايتم إلى سرى بنى هاشم إلى لأعرف في وجهه الهم ، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه . » ومضى الغنى إلى أهله فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحا ؛ فاستقبلته دهشة وهي تقول . « إليه يا شيبه ؟ ما خطبك ، إلى لأنكرت منذ أيام ؟ أراك مؤرق الليل ، قلق النهار ، قليل الحديث ، طويل التفكير . » ولقد هممت أن أسألك مراراً ، ولكن خشيت ردك على وانتارك لي ؛ فاني لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء . ودعابة معهن ، ولكن لا أجد عندك ما أجد عند قومك ، فأنت صامت إذا خلوت إلى أهلك ، وانت مقطب الجبين إن أظلك معهم يسقف . تحدث عما يحزنك . اخرج عن هذا الصمت الذي لزمته ؛ كن رجلاً من قريش ، أشرك أهلك فيما يعينك . لقد أذكر يوم أنبأني أبي أنك خطبتني إليه ، انسدد ، فرحت بهذا النبا ؛ لقد كنت أحدث إلى أترابي في البادية بأني سأصبح امرأة من قريش أجد من نعمة الحياة ولينها ؛ ومن ظرف الزوج ورقته ما لا يجدن تحت خيام بنى عامر بن صعصعة ، ولكن وجدت نعمة ولينا ، ووجدت حبا وعطفاً ، ووجدت عناية لا تعدلها عناية ؛ ولم أجد أحب ما كنت أطمح إليه ، لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط الجبين ، ولا انطلاق اللسان . » قالت ذلك وانتظرت هنيئة ، فأجابها زرجها بصوت هادئ حزين : « عزيز على ياسمراء ما تجدن من حزن ؛ وما تحسبن من خيبة أمل ، إلى لأحبك كما يحب الظمآن ما ينقع غلاته من الماء العذب ، إلى لأنس إليك أنسا يزيل عن نفسي كل هم ويحبب إلى الحياة ، ويرغبني فيها . إلى لأشتاق إلى التحدث إليك ، والاستماع لك ؛ والأنس بك . ولو خيرت ماعدات بمجلسك مجلس قريش ؛ ولا بيتك فناء المسجد ودار الندرة ، ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك على نفسي ، وتأخذ على كل سبيل ، وتدفعني إلى حيث لا أدري ولا أريد . »

إيه . . . ! إلى المؤرق الليل قلق النهار ، مفرق النفس منذ ليال ،  
ورني لأخني على نفسى شرا . هذا طائف يلقي إذا أغرقت في النوم ، فيأمرني  
بصوت رفوق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة ، أن أحفر شيئا يسميه طيبة  
ويسميه برة ، ويسميه المضنونة ، فإذا سأله عما يريد انصرف شخصه ،  
وانقطع صوته ، وأفتت حائرا مذهورا ، ولقد هممت — أن أقص  
روايات هذه على الكاهن ، وأن أحفله ما أرى وما أجد ، أشفقت أن يتحدث  
الناس عنى أنى مجنون ، وأن يقتدر في فتیان قریش فيقولوا : إن في رثيا  
من الجن . أشيرى ! ماذا تريد من ؟ قالت : « هون عليك ، ولا تمنع  
في الخوف ، ولا تسرف في الإشفاق ، ما أكثر ما يلزم هذا الطيف بالناس عندنا  
في البادية ، فلا يخافون ولا يهابون ، ومع ذلك فما يمتنع أن تتقرب أنت إلى  
الآلهة في غير توسط الكاهن ، ولا توسل به ! قم فضع لهم ، وقرب إليهم ،  
فدعهم ، وسيرضى الفقراء الملهتمون ، وسيغبط ذلك قوما من قریش . »  
وما هي إلا ساعات حتى كان قدام المسجد يهوج بالناس ، فهمم الفقراء وقد  
أقبلوا من البطاح والظواهر ، وفهم الأغنياء وقد أقبلوا يقدمون الضحايا  
بين أيديهم . هؤلاء يتنافسون أنهم يغلي الضحايا ويكثر منها ، وأولئك  
يتظفرون ، ويمنون أنفسهم بقديد اللحم وجيده ، لقد سمعوا أن عيد المطلب  
يريد أن يضحى ، وأن بنى هاشم قد حلفت لذلك ، فكرهت أمة ألا تفعل  
فعلهم ، وكرهت مخزوم أن تسبقها عيد مناف ، فأقبل أشراف قریش  
يستبقون في التضحية ، ويتنافسون في القران ، تنافسوا ! تنافسوا أيها  
الأشراف ! واستبقوا أيها الأغنياء ! إن في ذلك شيع الفقراء ، وسعادة  
الاشقياء .

وقضت مكة يوما جليلا أكثر فيه الطعام ، وكثر فيه المرح ، ورضيت

فيه الاضنام ، وسعد الفتى بما رأى ، ونسى الفتى ما كان يهيمه وينقصه ، وقدر أن قد صرف عنه الشر ، ورد عنه المكروه ، ورضيت سمراء فتحدثت كثيراً وسمعت كثيراً ، وأضحكت زوجها وأبناها الحارث بملح الأعراب ، ونوادير البادية . وقالت لزوجها - وهي تمسح رأسه : « أحبيب إلى هذا الطائف الذى أرقك وأخذناك ، فقد حقق أملى ، وأراني ما كنت أطمح إليه ، ورسم فى قلبى صورتك جميلة خلابة ، فلن أراك منذ اليوم - مهما تكن الخطوب إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ، منطلق اللسان . وهل السعادة إلا لحظات قصار تصيبنا ولم ننتظرها ، ولم نقدر لها حساباً ؟ فما أسعد القلب الذى يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ، ويتخذها ذخيراً للأيام وما يعرض فيها من الخطوب ، قال عبد المطلب : « إذا فأنت راضية . إن رضاك ليقع من نفسى المحزونة موقع الماء من الأرض الجيدة . انعمى بما أنت فيه ، وانتظري أن يقدر الله لك خيراً منه ، فلو قد صرفت عنى هذه القوة العاتية الطاغية لأريتك كيف تطيب الحياة ، وكيف ترق حواشى العيش . »

وأوى عبد المطلب إلى مضجعه راضياً مسروراً ، واستقبل النوم مبهتجاً له ، راغباً فيه . ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعياً في هدوء ، كأنما يمضى فى الهواء ، حتى إذا دنا منه انحنى عليه ، ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة ، وقال فى صوت رقيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر زمزم . » واضطرب جسم الفتى كله ، واضطربت نفس الفتى كلها ، وانفتحت شفتاه عن هذه الكلمة : « وما زمزم ؟ » قال الطيف بصوت رقيق مؤنس ، قد فارقت الغرابة والوحشة ، ومازجته سخرية ورحمة : « لا تنزع ولا تنزم ، تسقى الجعيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم . » قال عبد المطلب : « الآن قد وعيت . » فتولى عنه الطيف باسماء وهو يقول :



« الله أنتم أيها الناس ! لا يكفيناكم الوحي ، ولا تفقهون إلا سبع السكبان .  
وويذا ؟ عما قريب سيضيء الصبح ، ، . ونهض ميتها مسرورا .  
فلما أصبح دخل على سمراء مشرق الوجه ، مضى الأسارى ، فقالت وهي  
تسعى إليه : « أيما أحب إلى نفسي ؛ إشراف وجهك أم إشراف الشمس ؟  
ما أرى إلا أنك أفضيت ليلا هادئا . » قال : انعمي صباحا ! لقد  
طابت الحياة منذ اليوم ، إن هذا الطائف - الذي يلح منذ ليال - طائف  
خير بالنعمة والقيث ، إنه يأمرني أن أحترق في فناء المسجد بئرا ، فلا فعلن  
منذ اليوم ، ولئن ظفرت بها ليشربن الحبيب في غير جهد ولا عسر . هلم  
يا حارث ! خذ معولا مكثلا ، ومسحاة ، وأتبع أباك . »

وكان ذلك إيذانا ببده عهد جديد في العرب ، عهد تقديس الشعائر ،  
والاعتراف بنعمة الله على العرب وعلى قريش ، وشكر الله على ما أفاض على  
المسكين من خير وماء موصول ، وعلى ما سيفضه عليهم كذلك في مقبل الأيام

من خير ونعمة وعيد ، برسالة محمد بن عبد الله  
أما نقطة التحول ، فكان مظهرها إيمان أبي بكر برسالة محمد صلوات  
الله عليه وسلم ، وأبو بكر ينتسب إلى قبيلة تيم بن مرة ، ويلحق في نسبه  
بالتيم ، ويرتفع معه في النسب إلى عدنان

كان يسكن في حى ( خديجة ) زوج الرسول ، وكان الرسول يسكن معها  
في منزلها ، ومقامه هذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد برباطة الصداقة ،  
وساعد على ذلك تقاربهما في السن ، إذا كان بصغر الرسول بشحور سنتين وأشهر ،  
واتفاقهما في الرغبة عن عادات قريش وعقائدها فلما بعث الله رسوله  
بالإسلام التفت أول ما التفت إلى صديقه أبي بكر فدعاه ، فما تردد لحظة

وكان أول من آمن به ، ودعا أبو بكر أصحابه إلى الدين الجديد ، وآمن بدعوته السابقون الأولون من المسلمين .

وكان أبو بكر تاجراً ، يبيع الثياب ، ويربح من تجارته كثيراً ، والتجارة تقتضى من صاحبه أن يكون كثير الصلوات بالناس ، يلتصق بهم ، ولكن أبا بكر أثر عقيدته التي لا ترصاها قريش ، وجمهور العرب ، على رضاهم والتحبب إليهم ، ولم يزال ما يصيب تجارته من كساد ، بسبب خصومته لهم ، واقطاع صلته بهم ، على أنه لم يكتف بأن يكون مؤمناً في نفسه ، بل كان داعية يدعو الناس إلى الإيمان ، فهذا مما يدعو إلى العجب من قوة إيمانه ، وما كسبه الإسلام بدخول أبي بكر فيه ، ويعادل ما كسبه بدخول عمر بن الخطاب القوى ، وحزرة عم النبي ، وكلاهما بطل شجاع ، والهدى ، هو أول من أيد الله به دينه ، فتصدى معه لخل راية الجهاد منذ أول لحظة ، وأما هذان قد دخلا في الدين بعد دخول طائفة من بيوتات قريش فيه .

وكان إسلام أبي بكر عزة للإسلام ولم يقهر أبو بكر عمله على الدعوى إلى دين الله ، وعلى أن يبذل من ذات نفسه ، فإنه كان يبذل ماله أيضاً في سبيل دينه ، فينتفع على الضعفاء من المسلمين الذين دخلوا في دين الله ، ويشترى الأرقاء المسلمين من ساداتهم ، ويحررهم ، مثل بلال بن رباح مؤذن النبي ، وقد كان عنده من مكسب تجارته أربعون ألف درهم ، فأفنى معظمها في ذلك ، وحينما هاجر إلى المدينة لم يكن معه منها سوى خمسة آلاف . وكان يتعرض لقريش التي كانت تؤذى الرسول ، لحنبا ونبوا على النبي في الكعبة وقالوا له : أنت الذي تقول في آلهتنا كذا وكذا ، ونحن نؤمن بشيائهم أبو بكر عنه وبكى وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ولما أسرى بالرسول

ليلاً إلى المسجد الأقصى بيت المقدس ، وأخبر النبي قومه صباحاً بما شاهد هناك ، وجدتها قريش فرصة للنيل من محمد ، فبين مسكة وبين بيت المقدس مسيرة شهر بالجمال ، فكيف يذهب محمد إليه ويمود في ليلة ، وأخذت تسخر منه لذلك ، وتشكك نفر من المسلمين ، واستبعدوا ذلك تأثر إبداعات قريش ولما أتوا أبا بكر يبلغونه ما تحدث الرسول به ، قال على الفور : والله لئن كان قد قاله لقد صدق ، إنه ليخبرني الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تمجبون منه ، وجاء أبو بكر إلى النبي في المسجد ، وسمع حديث رسول الله عن الإسراء ، فلما أتم النبي صفة المسجد الأقصى ، قال له : صدقت يا رسول الله ، ومن يومئذ دعاه النبي بالصديق . وهذا موقف عظيم من أبي بكر ، فلو أظهر التردد لحظة ، وشك فيما تحدث به الرسول ، لكان موقفه خطراً على الإسلام ، ولكن الله ثبته ليحفظ به عقائد الكثيرين من أصحابه ، ويجتنب الإسلام قدماً ، يرداد كل يوم انتشاراً ، وكلمة أبي بكر تدل على إدراك تام للوحي والرسالة ، لا يؤثاه كثيرون ، فإستبعد على قدرة الله شيء . ونزول الوحي بمون بجانبيه أمر الإسراء وموقفه كذلك من هجرة الرسول عظيم ، فانه انتظر ولم يهاجر إلى المدينة مع من هاجر من المسلمين ، ولما أذن له الرسول أن يصاحبه في هجرته رافقه معرضاً نفسه للخطر ، فان قريشا عقدت العزم على أن تقتل محمد أن قبضت عليه في هجرته ، وهي لاشك تقتل من هاجر معه ، لانه شارك في عمله وسئل له طريق الهروب من وجه قريش . واختبأ في الغار معه ، وشاهد قريشا تبحث عن النبي بجوار الغار ، وخاف أن تهتدى قريش للرسول ، ومرت عليه ساعة رهيبية ، لم تمر على إنسان قبله ولا بعده : تساءل فيها : ماذا يكون حال الدين الناشئ . إذا قبضت قريش على صاحبه وداعيته ؟ وماذا

يكون موقفه إذا امتدت أيدي العدو إلى النبي فأذنه؟ والنبي هو كل شيء في حياته . ولذلك حزن أبو بكر غاية الحزن في النار ، لا خوفاً على نفسه ، وإنما خوفاً على رسول الله الذي يرافقه ، ويخشى أن تطلع عليه الفئة الباغية . ونزل أبو بكر بالسنع ، وهي ضاحية من ضواحي المدينة ، بدار خارجة بن زيد ، وأخى النبي بينهما ، وتزوج أبو بكر بنته . وأما أسرة أبي بكر فنزلت المدينة نفسها ، بجوار دار أبي أيوب الأنصاري ، التي نزل فيها الرسول . ومن أسرته عائشة التي تزوج بها الرسول بالمدينة ، حين مقدمه إليها . ووافق أبو بكر الرسول في جميع غزواته لم يفارقه مرة وكان منه بمنزلة الوزير ، وكان إيمانه الصادق يتجلى في جميع مواقفه ، ويعبر عن كل أحواله النفسية ، فهو يوم د بدر ، يرى النبي يسأل ربه النصر ، ويبالغ في السؤال فيقول له أبو بكر : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك . وكان مع عقيدته المتكئة من نفسه ، لا يتدفع بالأذى ، شأن المتعصبين لرأى في زماننا ، فهو يميل إلى الرحمة ما وجدها ، تحب الحق ، وحب الرحمة ، هما مبدأه . حينئذ شاوره الرسول فيما يفعل بأسرى قريش في د بدر ، أشار عليه بأن يقبل الفدية منهم ويطلقهم ، بينما أشار عمر بقتلهم وهكذا ظل أبو بكر في جوار الرسول ، إن حارب وإن سالم ، حتى مرض الرسول مرضته الأخيرة ، فقدمه إلى الصلاة بالمسلمين ، وقال فيه في أنشاء خطبة خطبها أواخر أيامه : « إني لأعلم أحداً كان أفضل في الصحة عندي بدا منه . وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده . » ولما توفي محمد كان أبو بكر ساعة توفي الرسول في داره بالسنع ، وبلغه الخبر ، وجاء يجر إزاره ، وقد بدا عليه الحزن ، ودخل إلى حجرة عائشة بنته

فوجد الرسول مسجى فوق سريرته ، فكشف عن وجهه ، ولما تحقق وفاته  
ناجاه بكلمات مؤثرة : « بآي أنت وأبي يا رسول الله ، ما أطيبك حيا ، وما  
أطيبك ميتا ! » ثم خرج من الدار فوجد عمر ، قد أذهلته الفاجعة . وأخذ  
ينقلب في الناس . ويقول « يا مات رسول الله ، ولكننه ذهب إلى ربه ، كما ذهب  
موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين عاما ، ثم رجع إلى قومه ، بعد  
أن قيل قد مات » . وقد أخذ يردد عمر من قال يموته . ولكن أبوبكر قام  
في الناس فقال : « أيها الناس من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن  
كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول  
قد خلت من قبله الرسل : أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن  
ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » . فلما سمع  
عمر هذه الآية ، خر إلى الأرض ، ما تحمله قدما . فهذا أبو بكر الرقيق ،  
الدامع العينين من الكلمة المؤثرة ، لا يذهله هذا الموقف الفاجع في أحب  
الناس إليه ، كما أذهل عمر الشديد ! لا شك أن الله مزمه بفضيلة راجحة هي  
قوة مواجهته للحقائق ، وأنه يملك نفسه ، حتى في أشد الأحوال . وقد  
اقرنت هذه القوة النفسية ، بصفة أخرى لا تقل عنها جلالا ، هي بعد النظر  
إلى المستقبل .

وكانت تدب روح العصبية أحيانا بين المهاجرين والأنصار ، كل يتعصب  
لقبيلة ، في حياة الرسول ، ولكن ما تلبت شخصية الرسول العظيمة أن تظل  
عليهم ، فتطفي عصبيتهم ، وتعيدهم إخوانا متحابين . وقد حدث حين فتح  
مكة ، أن تحدث الأنصار فيما بينهم ، أن الرسول ربما استقر في بلدة الأولى  
ولا يعود إلى مدينته . ولكن الرسول رد عليهم بقوله : « المحيا يحياكم والممات  
عمانكم » . وحدث في غزوة حنين ، حينما وُزع النبي الغنائم ، وأجزل العطية

لمن تألقهم من قريش أن غضبت جماعة من الأنصار وقالوا : أعطى قومه وتركنا ، وسيوفنا تقطر منهم دما ١ ، وعظيهم النبي وبين لهم سبب إغداقه على قريش ، فرجعوا إلى أنفسهم باكين ، خاشعين نادمين . إذن كانت مناقشة بين المهاجرين والأنصار ، ومقارنة بين النظراء . فلما توفي الرسول صاحب الدين ، كان لابد أن يتساءل المسلمون : من الذي يقوم مكانه ، ويتحمل العبء بعده ؟ وهنا تطلع الأنصار إلى أنفسهم ، ورأوا أنهم أحق بهذا الأمر لأنهم الذين نصرروا الرسول بسيفهم ، ونشروا دينه في القبائل ، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، ليتشاوروا في هذا الأمر وينصّبوا أحدهم خليفة للرسول وسمع المهاجرون باجتماع الأنصار هناك ، فذهب عمر إلى أبي بكر وأخبره الخبر ، وكان الصديق مشغولا بتجهيز الرسول لأنه من آل بيته ، فزووج زوجته . واسكنه لما سمع الخبر الخطير الذي يتوقف عليه أمر المسلمين ، ترك جهاز الرسول لأنه وهم كثير ، وذهب مع عمر وأبي عبيدة إلى السقيفة . وسمعوا خطب الأنصار : سعد بن عباد ، والحباب بن المنذر ، وهما يطالبان بأن يكون الخليفة منهم ، وبهم عمر بالكلام ، ويقدر الصديق شدة عمر ، وأن الموقف يحتاج إلى لين ولباقة ، فيخطب خطبة يظهر بها أحقية المهاجرين بالخلافة لأنهم آل الرسول وقومه ، وهم من قريش سادة العرب من القديم ، ولا تخضع العرب لغيرهم ، وهم أول من عبد الله في الأرض ، ومناهم في آخر الخطبة أن يكون المهاجرون الأمراء ، والأنصار الوزراء . وتتكرر الخطابة من الأنصار بعد أبي بكر ، ويرجمون خطوة عما طالبوا به أولا ، ويسألون : أن يكون من المهاجرين أمير ، ومن الأنصار أمير . ويخطب عمر ، وينق أن يجتمع أميران في قرن ، ويؤيد أبا بكر ، ويخطب أبو عبيدة ، فيذكرهم أنهم كانوا أول من

آمن برسول الله ونصره ، وبناشدهم في عطف الأكرابوا بدوقاته أول من بدل في دينه وغير . وتوثر كلته في فريق من الانصار ، فيقوم واحد منهم ، ويعلم أن الخلافة للهاجرين ، وأنه لا ينازعهم هذا الامر ، فهم أهل الرسول ، وأحق الناس به . ولما كانت الانصار تتأف من قبيلتي : هما الاوس والخزرج ، خشيت الاوس أن تنزعها الخزرج ، فتكون لها بذلك مزية إلى الابد . فسكتوا عن تأييد صاحبهم للخلافة وهو سعد بن عباد . وادرك عمر أن الوقت يجب أن لا يطول ، وان الخلاف يجب أن ينهى ، فنادى بصوته الجمهورى : أبسط يدك أبا بكر لأبيك ، وبأيه عمر ، وبأيه بدو سائر المسلمين .

وكان يوم السقيفة من الأيام العصيبة في تاريخ الاسلام ، ولولا تأييد الله الاسلام لذهبت ريحه ، ودالت دولته

وكان الأنصار يتطلعون إلى الخلافة بعد وفاة الرسول وكانوا لذلك يحقدون على المهاجرين استئثارهم بالأمر بعدهم ، وبدأت هذه الروح ظاهرة حين أجاز الرسول العطاء للوفاء فلوهم من أهل مكة بعد فتح مكة وغزاة حنين ، فقد تحدث بعضهم إلى بعضهم وقال قائل منهم « لى والله رسول الله قومه ، فلما بلغت هذه المقالة التي طلب إلى سعد بن عبيدة سيد الخزرج أن يجمعهم إليه ، فلما اجتمعوا قال لهم : يا معشر الأنصار : ما قاله بلقيش عنكم ، ووجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللا فهداكم الله وعالة فأعانكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم . فأتروا الأنصار لما سمعوا — وكان كل جوابهم « بلى . لله أو رسوله المن والفضل . » ثم قال لهم الرسول بعد ذلك : « أوجدتم يا معشر الأنصار في لاعة (١) من الدنيا تألفت بها

(١) القاعة : الخصب والدنيا ، والجرعة من الشراب والكلأ الخفيف  
دعى أو لم يرفع ويقصد بها هنا الشيء الطفيف القليل

قوما ليسلوا ووكثكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون بامعشر الانصار أن يرجع الناس بالاشاة والبعر ، وترجعون برسول الله إلى رحابكم فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار . ولو سلك الناس شعبا (١) وسلك الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار . .. وهذه السياسة الرشيدة الحكيمة اعلم أن الانصار وقالوا : رضىنا برسول الله قسما وحظا .

ولما توفى الرسول عليه السلام كان من الطبيعي إذن وقد رأيت نظرة الانصار وتطلعهم إلى الخلافة أن يسرعوا إلى التفكير في أمرها وأن يجتمعوا في السقيفة .

وبحسن بنا ونحن نتحدث عما قيل من خطاب في هذا اليوم أن نمهد للموضوع بمقدمة تاريخية موجزة .

والسقيفة الظلة التي كان المسلمون يجتمعون فيها وهم بالمدينة ، وهي أشبه ما تكون في أيامنا الحاضرة بالنادى السياسى الذى يجمع شمل الحزب ليدير أموره فيه ويعالج المسائل التي تعرض له .

وبوم السقيفة من الايام الخالدة على وجه الدهر لأنه كان يوماً فاصلا بين وجهات النظر المختلفة ، فقد كان للمهاجرين رأى قويم يتولى الأمر بعد الرسول يختلف عن رأى الانصار في الاحق بهذا الأمر من بعده ، وفي هذا اليوم الخالد وضع أساس الحكم الإسلامى بعد وفاة الرسول كما وضع النظام الذى يجب مراعاته والشروط التي يجب توافرها في اختيار الخليفة

---

(١) الشعب : بكسر الشين الطريق ويفتحها : الجمادة والامة



وأنه لا يكون من غير قريش .

واجتماع الزعماء لحل مشكلاتهم السياسية أمر قديم معروف عرفه الإسلام في هذه السقيفة كما عرفه العرب في دار الندوة بمكة حين أجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة التي قاطعوا بها بني هاشم لما أصابهم من العنت والمشقة ، وحين أجمعوا على قتل الرسول لما أعيتهم الحيل في إبطال دعوته وصرفه عنها . فإذا كانت سياسة العرب والامم الآن يجتمعون في فترات مختلفة على هيئة مؤتمرات ، حينئذ يتلبذ جو السياسة بالقبوم ، فإن هذه سنة طبيعية لجأ الناس إليها قديما ولا يزالون يلجئون إليها في عصورنا الحديثة .

وزعماء هذا المؤتمر سنة نقر من أبطال الصحابة وكبار المسلمين الذين امتازوا برجاحة العقل وسداد الرأي والذين لهم بين قومهم المكان الأول من الإجلال ، اجتمعوا في سقيفة بنى ساعد ليتبادلوا الرأي فيمن يتولى الامر بعد الرسول ، وكان سعد بن عباد في داره يشكو مرضا فأخرجوه لإهم ليكون صاحب الرأي فيهم ولما خطب خطبته التي ستذكر فيما بعد ، قالوا له : وفقت في الرأي ، وأصبحت في القول ، ولن نعدو ما رأيت ، نوابك هذا الامر .

غير أن هذا القول لم يكن صادرا عن اجماع منهم فإن بني الاوس أناروا اعتراضا له وجهته ؛ إذ قال قائل منهم : « فإن أبي المهاجرين من قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الاولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوا هذا الامر بعده ؟ » فأنصت الحاضرون إلى هذا القول ورأوا فيه من الوجاهة ما لا يستطيع دفعه عندئذ ، فقالت طائفة منهم : إن أبوا هذا « فإننا نقول : إذن منا أمير ، ومنكم أمير وإن نرضى بدون هذا الامر بدأ . » ولما سمع ابن عباد هذه المقالة آله ذلك — فقد كان يطمح أن يكونوا جميعا

أوسهم ونحزرجهم، على رأى واحد من القسك به، وفاته أن الأوس لا يسدون  
عن رضا واختيار باختياره خليفة وحاكما فالتراع بينهم قديم على السلطان  
والحكم. وحين كان الانصار في سقيفة بني ساعدة يتداولون أمرهم بينهم  
يريدون أن يستأثروا بالسلطان على العرب كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة  
وطائفة من كبار المسلمين يتحدثون في المسجد عن وفاة الرسول وكان أبو  
بكر وعلى بن أبي طالب وأهل بيت النبي يحيطون بحسان الرسول يعدون  
العدة لتجهيزه ودفنه — وبدأ ابن الخطاب منذ وفاة الرسول يفكر فيما عسى  
أن يكون له الأمر من بعده ولم يدبر بخلده أن الانصار سبقوه إلى التفكير  
أو يريدون أن يستبدوا بالأمر دون الناس وبيننا هم كذلك إذ جاءهم  
نبأ اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة فأرسل عمر إلى أبي بكر يخبره بما  
وصل إليه من اجتماع الانصار في السقيفة وأنهم يريدون أن يولوا هذا الأمر  
سعداً وأن أحسنهم مقالة من يقول: «منا أمير ومن قريش أمير»، فلما سمع  
أبو بكر هذه المقالة مضى مع عمر مسرعين إلى السقيفة والانصار لا يزالون في  
حرارهم ولم يبايعوا سعداً ولم يقطعوا برأى في ولاية الأمر ودعش الانصار  
حين رأوهم فأمسكوا عن القول، ولما أطمأن المجلس بالمهاجرين الثلاثة خرج  
الانصار من صمتهم ثم أراد عمر أن يتكلم فنهه أبو بكر خشية أن يشتد في  
قوله أو يعنف في خطابه، والموقف ليس موقف عنف ولا شدة بل موقف  
حزم وحسن تصرف، فنهض أبو بكر يلقى خطبته الخالدة التي ستذكر فيما بعد  
وقد استراح الجميع إليها لما فيها من الحق والوجاعة غير أن بعض الانصار  
حاول أن يثير حية اخوانهم ويستفزهم إلى الاستمساك بحقهم فتوجه إليهم  
أبو بكر مرة ثانية مخاطباً لهم: أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً  
وأكرمهم أحساباً . . . . . إلى أن يقول: فلن نعرف هذا الأمر إلا لهذا

الحى من قريش ، فتنن الامراء وأتم الوزراء .

ولما سمع الانصار هذا الجلة الأخيرة خشي بعض الانصار أن تؤثر في اخوانهم فينقادوا ، فقام الحباب بن المنذر بن الجوح يحرض قومه على الخلاف وعدم الاستماع لما دعى إليه أبو بكر وقال خطبته التي سذكرها فيما بعد ولم يكده الحباب يفرغ من حديثه حتى نهض عمر وألقى خطبته ثم أجاب الحباب بن المنذر عمر بن الخطاب بخطبة أخرى فيها شدة وعنف ودعوة إلى الثورة على المهاجرين وإجلائهم عن هذه البلاد وأخذ النزاع يشتد بين عمر والحباب لولا أن أبا عبيدة بن الجراح تدخل في الأمر وكان قد لزم الصمت إلى تلك اللحظة وقال موجها حديثه إلى أهل المدينة : « كنتم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدل وغير ، وانتز بشير بن سعد هذه الكلمة من أبي عبيدة فقام بين قومه وقال : يا معشر الانصار الخ »

على أنه بعد أن تبين للجنتمين حجج الفريقين ورأى المنصفون منهم أن حجج المهاجرين أقوى انتز أبو بكر هذه الفرصة وأراد أن يفصل في الأمر بالدعوة إلى عمر أو إلى أبي عبيدة فقال : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهم شقم فبايعوا » ، فآسح المجال أمام المبايعين واختلفوا فبعض يفضلون ولكن عمر لم يدع لهذا الخلاف أن تنبت شجرته فتأدى بصوته الجمهورى « ايسط يدك أبايك » ويسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول « ألم يأم النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفة الله فتحن نبايعك لنبايع غير من أحب رسول الله منا جميعا » ، وبايع أبو عبيدة وهو يقول (إلك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين فن ذا ينهى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك؟) . وأسرع بشير بن سعد فبايعه وعند ذلك ناداه الحباب بن المنذر : ( يا بشير بن سعد

عققت ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ - نفست الامارة على ابن عمك ( يريد ابن عبادة ) قال بشير ( لا والله ولكنني كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم ) - والنفت أسيد بن حضين زعيم الأوس إلى ما صنع بشير بن سعد وقال له ( والله لن وليتها الخزرج عليكم لازالت لهم عليكم بذلك القتل ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، قوموا فبايعوا أبا بكر . ) وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من أطعأوا إلى كلام بشير يبايعون مدرعين حتى ضاق بهم المكان من السقيفة ، وظل سعد يمتنعا من المبايعة حتى مات أبو بكر .

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار مطمع في ولاية أمر المسلمين لأن الخلافة لآل بكر على النحر الذي رأيت ، ثم عهد أبو بكر من بعده إلى عمر ، ثم اختير عثمان ثم كان الخلاف بين علي ومعاوية والأنصار في ذلك كله ليس لهم إلا ما سائر العرب ركائما آمنوا يقول أبي بكر من أن العرب إن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قریش ، وعاشرا في كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله في مرضه الأخير حين قال : « يا معشر المهاجرين اتصوا بالأنصار خيرا فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عييني إلى أوبت إليها فأحسستوا إلى محبتهم وتعاذوا عن مسيئتهم » .

خطبة سعد بن عبادة :

رأيت ما ذكرناه أن أزل من اجتمع في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ثم الأنصار وأن أول خطبة ألقى في هذا الجمع كانت خطبة سعد ابن عبادة يلقها ابنه أو بعض بني عمه إذ كان مريضا لا يستطيع أن يسمع القوم كلهم كلامه فكان يتكلم ويحفظ الرجل ( ابنه أو ابن عمه ) قوله فيرفع صوته :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (بامعشر (١) الانصهار (٢) لكم  
سابقة (٣) في الدين وفضيلة (٤) في الإسلام ليس لقبيلة من العرب . إن  
محمدا عليه الصلاة والسلام ليث يضع عشرة سنة (٥) في قومه يدعوهم إلى  
عبادة الرحمن وخلق (٦) الانداد (٧) والأوثان (٨) ، فما آمن به من قومه  
إلا رجال قليل وما كانوا يقدرون على أن يمتنعوا (٩) رسول الله ولأن  
يمزوا (١٠) دينه ، ولأن يدغموا عن أنفسهم منها (١١) عموا (١٢) به ،  
حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم  
الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد  
لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه من غيركم حتى استقامت (١٣) العرب  
لأمر الله طوعا وكرها وأعطى البعيدة المقادة (١٤) صاغرا (١٥) داخرا (١٦)

(١) المعشر : الجماعة : وأهل الرجل . (٢) الانصهار : سكان المدينة  
الذين أووا الرسول ونصروه . (٣) يقال له سابقة في هذا الأمر : أي  
سبق الناس إليه . (٤) الفضيلة : الدرجة الرفيعة في الفضل (٥) البضع  
ما بين الثلاث إلى التسع ويراد به هنا المدة التي أقامها الرسول في مكة يدعو  
أهلها إلى الإيمان وكانت ثلاث عشرة سنة . (٦) الخلق : الترك . (٧) الانداد :  
جمع ند وهو التطير والمثل . (٨) الوثن : الصنم . (٩) يمتنعوا : يدفوا عنه  
الاذى (١٠) يمزوا دينه : أي ينصروه ويقووه . (١١) الغيم : الدل .  
(١٢) عموا به : شملهم (١٣) استقامت : أي اتقادت العرب وخصمت .  
(١٤) المقادة : القيادة . (١٥) صاغرا : ذليلا . (١٦) داخرا : من دخر كنع  
وفرح دحرا ودغورا صغر وذل .

حتى أئمن (٩) الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ودانت (٢) بأسيا فكم له العرب . وتوقاه . وهو عنكم راض وبكم قدير (٣) عين ، واستبدوا (٤) بهذا الأمر (٥) دون الناس فانه لكم دون الناس .

خطبة أبي بكر :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه وشيئداً على أمته ليعبدوا الله ويرحده ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شائعة ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويعترفون هؤلاء شعاعونا عند الله ، وقالوا ما نعبدكم الا ليقربونا إلى الله زلفى » ، فعظم على الناس أن يتركوا دين آباؤهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتدقيقه والإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم لإياهم ، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لفلة عددهم وشنف الناس لهم واجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله والرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينافيهم ذلك إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الانصار من لا يشكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الاسلام وحضيتكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته وفيكم جلة

- (١) أئمن فلان فلانا أو عنه والمراد أخضعه ومنه قوله تعالى (حتى إذا أئمتهموم) أى غلبتهم وكثر فيهم الجراح .  
(٢) دانت خضعت . (٣) يقال قرت عينه نقر بالكسر والفتح قررة وقروراً : بردت وانقطع بكأؤهما أو رأت ما كانت متشوقة اليه .  
(٤) استبدوا : تفردوا به واجعلوه لكم وحكمكم دون غيركم  
(٥) بهذا الأمر أى الخلافة والحكم .

أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلةكم ، فنحن الامراء وأنتم الوزراء لانفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، (١)

(١) المفردات : الرسول المبلغ عن الله تعالى وأمره ونواحيه . الشهيد : الشاهد ، والأمين وشهادته الذي لا يغيب عن علمه شيء . العباد : الخاضعون . يوحده يفرده بالعبادة دون غيره . شق : كثيرة . يقال قوم شق أي فرق من غير قبيلة . الوعم : يطلق على القول الحق والباطل والكذب فيزعمون حنا أي يقولون قولاً باطلاً . الشفاعة : الوساطة لدى شخص ليحمله على العناية بالمشفوع له . نجر الخشب : نحته ومعنى الآية الكريمة أنهم يخضعون ويظلمون مالا يستحق التعظيم لأنه لا ينفع ولا يضر ذلك زاعمين أنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده — الزاني : والزلفة : القرية والمنزلة . المهاجر : هو من هاجر من مكة إلى المدينة هرباً بدينه . واسى فلان فلانا : خفف عنه بعض ما يلقاه إما بما لا يذله له أو بتحملة بعض ما يلاقى من الأذى فان المشاركة في نوع من التخفيف فقوله والمواساة له : أي أنهم كانوا يأسوته في تحمل الأذى . زار : من ذرى عليه ذرية : عابه . استوحش وجد الوحشة . والوحشة الخوف والمهم شنف الناس : أي إيقاعهم وتنكرهم من قولهم شنف له كفرح أبعضه وتنكره . ومعنى إجماع قومهم عليهم : اتفقتهم على إيدائهم والتنكيل بهم . عشيرته : جماعته ، وقوله وأحق الناس : أولى به من غيرهم . ساقبتهم : أي إلى سبقهم إليه دون غيرهم . جلة : يقال قوم جلة عظام سادة ذوو أخطار . لانفتاتون بمشورة : أي لا يعمل دون مشورتكم وأمركم شيء ولا يقطع برأي دونكم .

خطبة أبي بكر الثانية :

وهي ثاني خطبة له حين حاول بعض الانصار أن يستثير حمية اخوانهم ويستفزهم الى نداء العصبية ضد الله وأئني عليه ثم قال :  
أيها الناس ! نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا في الدين وشركاؤنا في الدين وأنصارنا على العدو ، آويتهم وآسيتهم لجزاك الله خيرا فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لآئدين العرب إلا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم ما منكمم الله من فضله (١)

(١) المفردات — الحسب : الشرف الثابت في الآباء أو الأفعال الصالح ، وكرم الاحساب يريد به شرف الآباء وطهارتهم — ومعنى أوسطهم دارا — انهم في بقعة من الأرض متوسطة بين البلاد العربية ومثل هذه البلدة تكون عادة يجتمع العرب ومحل اكبارهم واجلالهم — ويقصد من حسن الوجوه شرف الفعل ونيل الخلق ومعنى أكثر الناس ولادة في العرب : أنهم مشعبون في القبائل العربية فعصبياتهم عظيمة وعشيرتهم قوية تحمى الملك وتدفع عنه . وأمسهم رحما برسول الله : أى أغربهم قرابة إليه ، يقال بينهم رحم ماسة أى قرابة قريبة ، وقدمست بك رحم فلان ، وحاجة ماسة مهمة . الفى : الغنيمة والخراج . آواه : أنزله في داره . تدب : تخضع من دان يدين ذل وأطاع . الحى : بطن من بطون العرب . لا تنفسو : من نفس عليه بخير كفرح حسده ونفس عليه الشئ . نفاسة لم يره أهلا له .



خطبة الحبيب بن المنذر :

ثم قام الحبيب (١) بن المنذر بن الجرح فقال : يا معشر الانصار : امسكوا عليكم امركم فان الناس في فيثكم وفي ظلمكم ، وان يجترى . يجترى . على خلافكم ، وان يصدر الناس إلا عن رأيكم ، وانتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وانما ينظر الناظر إلى ما تصنعون ولا تحتلقوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم امركم . فان أبي هؤلاء . الا ما سمعتم فانا أمير ومنهم أمير (١) .

خطبة عمر بن الخطاب :

وهي التي يرد بها على الحبيب بن المنذر ، قال : ههنا لا يجتمع اثنان في قرن ، والله لا تمنحني العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنح أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولد أودهم منهم ، ولنا كذلك (١) — امسكوا عليكم امركم : أي لا تجعلوا لغيركم سلطانا عليكم . فيثكم وظلمكم : أي كنفتكم ورعايتكم ، ومعنى ان يجترى . الخ : أي ان يجد انسان في نفسه الشجاعة على الخروج عن سلطانكم . ان يصدر الناس الخ : أي لا يقطعوا أمرا إلا عن مشورتكم ورأيكم ، فان الصديق في الأصل الرجوع يقال صدر يصدر رجوع ومن هذا طواف الصدر أي الرجوع من مكان إلى أوطانهم . العزة : القوة ، الثروة كثرة المال ، أولو : أصحاب . المنعة : ان يكون للانسان من عشيرته وقبيلته من تعدي غيره عليه ، البأس القوة والشدة في الحرب النجدة : القتال والشجاعة والشدة والإغاثة ، ومعنى ينتقض عليكم امركم : أي يصبح امركم مفترقا بعد أن كان محكما باخافكم . هذا هو الحبيب بن المنذر من الخزرج يقال له ابو عمر شهيد بدر وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما شهد المشاهد كلها مع رسول الله توفي في خلافة عمر بن الخطاب .

على من أبى من العرب الحجبة الظاهرة والسلطان المبين. من ذا يتنازعنا سلطان  
محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانب لإثم  
أو متورط في هلكة (١)  
خطبة الحبيب بن المنذر :

وهي التي يرد بها على عمر بن الخطاب قال : « يا معشر الأنصار : املكوا  
على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر  
فإن أبوا عليكم ماسألتهم فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور  
فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان من لم  
يكن يدين ، أنا جذيلها المحكم وعذيقها المرجب ، أما والله أن شتمت لتعيدتها

جذعة . » (٢)

فقال عمر : « إذن يقتلك الله » قال : « بل إياك يقتل » . و فقال أبو عبيدة  
يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وأزر ، فلا تنكروا أول من بدل وغيره ،

(١) المفردات — هـ مات : اسم فعل ماض بمعنى بعد . القرن : الجليل .  
أمره جعله عليه أميراً ، وقوله : لنا خير مقدم والحجة مبتدأ مؤخر . الحجبة  
الظاهرة : البرهان الواضح . السلطان المبين : الدليل الذي لا يستطاع إنكاره .  
وقوله من ذا يتنازعنا استفهام إنكارى بمعنى النفي . جملة ونحن أولياؤه وعشيرته  
جملة حالية . مدل بباطل : من أدلى بحجته أى قدمها متجانب من الجنب وهو  
الميل والجور ، والاثم الذنب

(٢) المفردات : أبى عليه ماسأل : أى منعه ما طلب . أجلوهم أى أخرجوهم  
من هذه البلاد . جذيلها : تصغير الجذل وهو أصل الشجرة وعود ينصب للابل  
الجرى لتحتك به والمحكم : الذى تحتك به الابل . العذيق تصغير العذق =

خطبة بشير بن سعد الأنصاري :

فقام بشير بن سعد — أبو النعمان بن بشير — فقال : يا معشر الأنصار،  
إنا والله لئن كننا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين ما أردنا  
به إلا رضاء ربنا ، وطاعة نبينا ، والسكدرح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيع  
على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولي المنة علينا بذلك  
ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله  
لا يراني الله أنارعهم هذا الأمر أبداً فأتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم ،  
فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة فأجمعا شتم قبايعوا فقالوا : لا والله  
لا نتولى هذا الأمر عليك فأنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار  
وخطيفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي  
له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك ، فقام الناس  
إليه قبايعوه ،

هذا هو يوم السقيفة الذي كانت نتيجته نصرا مؤزرا للإسلام والدعوة  
والرسالة ، وللمسلمين عامة ، وكان مقبرة جديدة للمصيبة الجاهلية الأولى ،  
وكان دليلا على فضل أبي بكر وحسن بلائه عن الإسلام .

== (بالفتح) وهو النخلة . المرجب : الذي جعل له درجة وهي دعامة تبقى حولها  
من الحجارة وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تحفوها عليها أن تنقر من  
الرياح العواصف . والتصغير هنا يراد به التكبير والتعظيم ، وهو مثل يراد  
به أنه رجل يستشفى برأيه وعقله . الجذعة : الشابة الفتية ، يريد الخروب  
والذرات والمصيبة .

وقد قضى أبو بكر على ثورات المرتدين ، ثم بعث الجيوش تغزو ومحارب دولة الفرس ودولة الروم ، وتقضى على نفوذها من الأرض ، ومحارب استعمارهما للشعوب واستيادتهما بالأمم . تقدم المثنى بن حارثة إلى العراق ، وتقدم خالد بن الوليد إلى الشام ، وانتصر خالد في اليرموك نصراً مؤزراً على جيوش الروم ، وانتصر الجيش الاسلامي في العراق ، وبعد فليسل حضرته الوفاة .

أوصى بحسن ماله لبيت المال ، وقال : آخذ من مالي ما آخذ الله من في المسلمين ، أو ما أرضى ربي من العنيفة . وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضاً بالقيالية ، فلما حضر وعائشة تمرضه ، جلس وتشهد ثم قال : يا بنية ، إن أحب الناس غني إلى بعدى أنت ، وإن أعز الناس فقراً إلى بعدى أنت ، وإنى كنت تحملك أرضى التي تملين ، وأنا أحب أن ترد بها على ، فيكون ذلك قسمة بين ولدي على كتاب الله . فانما هو مال الوارث . وهما أخواك وأختاك . وقد فعلت عائشة ، وعرفت أن والدها شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا خفيف الظهر بريئاً . وسأل عائشة : في كم ثوب ~~كسفن~~ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : في ثلاثة أثواب . قال : اغسلوا ثوبي هذين ، وابتاغوا لي ثوباً آخر . قالت : يا أبت لنا موسرون . قال : أى بنية ! الحق أولى بالجديد من الميت ! وبدأ أبو بكر يعالج سكرات الموت ، وعائشة ابنته إلى جانبها ، فلما رآته كذلك تمثلت ببيت حاتم : لعمرك ما يغني الثراء عن الفنى إذا حترجت يوماً ، وضاق بها الصدر فنظر الصديق إليها كالغضبان ، ثم قال : ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » وكان آخر ما تكلم به : « رب توفنى مسلماً ، والحقني بالصالحين ، وقبض في يوم

الاثنين ٢١ جادى الآخرة سنة ١٣ هـ. وهو فى الثالثة والستين من عمره ،  
وقد دفن إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم . وارتجت المدينة لوفاة أبى بكر ،  
وتولى الناس الدهش ، وأقبل « على » مزرعا باكيا ، حتى وقف بباب قبره ،  
فقال من خطبته : « صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين يخلوا ،  
وقمت معه حين قعدوا ، وسماك الله فى كتابه صديقا ، فقال : « والذي جاء  
بالصدق وصدق به ، يريد محمدا ويريدك ... »  
وأبنته عاتقة فقالت من خطبة : « فضر الله يا أبت وجهك ، وشكر  
لك صالح سميع . فقد كنت الدنيا مذلا ، بادبارك عنها ، والآخرة معزا  
باقبالك عليها ... » وقال عمر : « يا خليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك  
تعبا ، ووليتهم نصيبا ، فهم ياتون من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ؟ » .  
هذا هو أبى بكر بطل الاسلام ، والذي تقول فيه ابنته عاتقة أم المؤمنين ،  
وقد بلغها أن أقواما يتناولون ابا بكر فارسلت إلى أزفة من الناس ، فلما  
حضرها ، أسدلت أستارها ، وعلت وسادها (١) ، ثم قالت : أبى ،  
وما أبى (٢) . أبى والله لا تعطوه الا بدي (٣) ، ذاك طود منيف ، وفرع  
(١) يتناولون : نال من عدوه ( من باب تعب ) بلغ منه مقصوده ،  
والمراد أنهم يتكلمون فى شأنه بأقارب . الأزفة : الجماعة ، يقال : جاءوا  
أزفة وأجفة أى جماعات . أسدلت : أرخت ، والسدل : السر ، الوساد :  
ما يملوه بالانسان فاش أو تراب أو غير ذلك .  
(٢) وما أبى : ما استغماية مبتدأ ، أبى : خبر أصلها أبى لحقتها هاء  
السكت وكل متحرك بحركة بناء أصلية إلا الفعل الماضى يجوز أن تلحقه هاء  
السكت عند الوقف عليه ، والاستفهام هنا للتعظيم .  
(٣) العطر : تناول : ومعنى الجملة : أن الناس لا يبلغون مسداه

مديد (١) ، هيات ، كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم وسبق إذ ونيتم  
وسبق الجواد إذا استولى على الامد (٢) .  
فقي قريش ناشتا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها وبريش عاقها ويرأب  
شعبها ، ويلم شعبها حتى حليته قلوبها ، ثم استشرى في دين الله ، فما برحت  
شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بقنائه مسجدا يحى فيه ما أمات  
المبطلون (٣) .

(١) العلود : الجبل الشاهق ، مأخوذ من قولهم : بناء منطاد (بضم الميم)  
وهو الذهاب في السماء صعودا ، وقد طوده أطوليدا . متيف : اسم فاعل من  
أناف أى : عال مشرف .. الفرع . النقص .  
(٢) هيات ، اسم فعل ماض بمعنى بعد ، أنجح . يقال : نجح فسلان  
ونجحت طابته : أى صار ذا نجح . أكدي : من الأكداء وهو الخيبة .  
(٣) فقي . قوى سنخى . نشأ أبو بكر من قريش أعز العرب فكان  
فتاها القوى وكهفها . السكهف : الملجأ ، كان ملجأها وملأها في كبره  
العسائي : الأسير ، راى بريش : أغنى وتمعد مأخوذ من ريش تطاير وهذه  
المادة متداولة في كثير من اللغات بهذا المعنى ، المعلق . الفقير سمى كذلك  
من المعلقة وهى الصخرة المساء ، أو لأنه يتملق أهل المال . يرأب . يجبر  
ويصلح . الشعب : الصدع أو الجبر (وهو من الأضداد) والمراد هنا  
الاول . يلم : يجمع . الشعب : المتفرق . حليته : وجدته حلوا مستحسننا .  
استشرى : لج وتمادى ، شكيمته : جده وصلابته والشكيمة فى الاصل  
حديدة اللجام المعترضة فى فم الفرس وهى التى تمنع الفرس من جراحه ، شبهت

وكان غزير الدمة ، وقيد الجوانح . شجي النشيج ، فاقضت اليه نسوان  
صكة وولدائها يستخرون منه ، ويستهنون به (١) (الله يستهنى بهم،  
ويهدم في طغيانهم يعمهون) فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت  
قسيها وفوقت سهامها ، وامتثلوه غرضاً ، فما قلوا له صفاة ،  
ولا قصفوا له قناة ، ومن على سياسته حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، ورست  
أرئاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار  
منها أنفة الرجل ونصايه في الأمور ، وما يجتمع من الموادة فقالوا : فلان  
شديد الشكيمة لأنه إذا اشتدت تلك الحديدة كانت عن الجاح أمنع ، واشتقوا  
منها في صفة الأسد : شكيم . وشكمت فلانا ، إذا ألبته بعباء .  
(١) وقيد الجوانح وفذ : كسر ، الجوانح : الضلوع ، يقال وقيد  
الجوانح أى يحزن القلب لأن الجوانح تحتوى عليه فأضاف الوقود إليها .  
والمراد أن الله يخوف قلبه فكان رقيقا حساسا ، شجي النشيج أن ينص  
الحلق بالبسكاء من غير انتحاب ، ومنه نشيج الطعنة عند خروج الدم ،  
ونشيج القدر عند الغليان ، والشجا : ما تعلق بالنفس من غصة وهم ، والمعنى  
أنه كان شجيا في نشيجه ، تقصد بذلك أنه كان مشغولا ببسكائه سرا خوفا  
من الله ، أو أنه يحزن من يسمعه بأكيا . انقضت إليه وبرى ( قانصفت  
عليه) والمعنى اجتمعت عليه . صرفهم اليه صارف اللهو والشجربة .  
الطنيان : الزيادة . العمه : التردد في الضلال . رجالات : جمع رجل ،  
ولا يستعمل إلا لعظماء الرجال . حنت : عطفت وأعدت . القسى : جمع  
قوس . فوق السهم : جعل له فوقه وهي موضع الوتر من السهم . امتثلوه ،  
جعلوه هدفا يرمى ، فلوا : كسروا . الصفاة الصخرة الملساء .

الله لنبيه ما عنده (١) قلنا قبض الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) ضرب الشيطان رواقه ومدعنيه ، ونصب حباله ، وأجلب بخيله ورجله ، واضطرب حبل الإسلام ، ومرج عهده وماج أهله وبني الفوائل (٢) ، وظلت رجال أن قد أكثبت أطاعهم نهزها ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصدى بين أظهرهم ١٩ (٣) فقام حاسرا مشعرا ، لجمع حاشيتيه ، ورفع قطريه

(١) سياسته ؛ شدته وحدته يقال : حمله على سياه الحق أى على حده ، وأصل السياه عظم الظهر ، ومعرب تضربه مثلا لشدة الأمر . جيران البحر : مقدم عنقه من مذهبه إلى منحره ، والجملة استعارة تمثيلية شبه حال الدين يستقر ويثبت ويستقيم بحال البحر يستريح فيمد عنقه على الأرض . أفواجا : جماعات . أرسالا : جمع رسل بفتحتين : وهو القطيع من كل شيء . أشنانا : متفرقين اختار الله لنبيه ما عنده : كناية عن وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى .

(٢) الروق : الفسطاط . الطنب ، حبل طويل يشد به مرادق البيه وفى هذه العبارة استعارة تمثيلية ؛ شبه حال الشيطان بزوله بينهم واستقراره فيهم بحال البيت يمتد فسطاطه وتشد حباله وتتمكن . أجلب : صاح ، والحيل : الخيالة ومنه (يا غيبل الله أركي) الرجل : جمع راجل كالمصحب والركب أى : صاح بالركاب والمشاة . المرج بفتحتين . الفساد والفاق والاضطراب ، ماج : اضطرب . الفوائل : ذوو النثر والحقد الباطن .

(٣) أكثبت : قاربت . نهزها : جمع نهزه وهى الفرصة . لات حين الذى يرجون : لات بمعنى ليس واسمها ظرف زمان محذوف تقديره : ليس الحين حيناً يرجونه . أنى . بمعنى كيف ، والاستفهام للاستبعاد أى بمد رجاؤهم فى أطاعهم لأن الصديق بينهم يتولى دين الله بحكمته .



فرد رسن الاسلام على غربه ، ولم شعثه بطيه ، وانتاش الدين  
فتمشه ، فلما أراح الحق على أمه وقرر الروس على كواهلها ، وحقق  
الدماء في أحبها ، أنته منيته ، فسد ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في  
السيرة والمعدلة ، ذاك ابن الخطاب (١) ، لله در أم حملت به ، ودرت  
عليه ، لقد أوحدت به ، ففتح الكفرة ودينها وشرذم الشرك شذر مذر ،  
وبعج الأرض وبعجها فقات أكلاها ، ولفطت خباياها ، ترامه  
ويصدف عنها ، وتصدى له وبأياها ، ثم وزع فيها فيثها ، وودعها كما صحبها ،  
فأروني ماذا ترمأون ؟ وأي يوسي أبي تنتمون ؟ . أيوم لاقته إذ عدل  
فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي  
ولكم (٢) .

ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت  
شيئا ؟ قالوا : اللهم ، لا .

(١) قطريه ، القطر : الناحية . رسن : حبل . غربه : الغرب حد  
الشيء . انتاش : انقل . تمشه الله كأنه : رفعه . أراح الحق : رد  
الحق . كواهلها : الكاهل : مقدم أعلى ظهر البعير مما يلي العنق . حقق  
الدماء : منعها . أحبها : جمع إهاب وهو الجسد والمراد . الأجسام .  
الثلثة : الشفرة والشق : العدل . المعدلة .

(٢) الدر : اللين والنفس والعمل ، أوحدت به : ولدت واحدا أي جاءت  
به منفردا لا نظير له . فتح الكفرة : أذهم وقهرهم . داخ البلاد ودينها  
ودوخها : قهرها واستولى على أهلها . شرذم الشرك شذر مذر : فرق أهله  
في كل جهة . بعج الأرض : شقها كناية عن الفتح ، بعجها : قهر أهلها  
واستخرج ما فيها من الكنوز وأموال الملوك . تشير إلى جيوشه التي سيرها =

### الدين والإصلاح

بين مواكب الشباب الساعية لخير الحياة ومجدها ، ترى البعض قد انحرّف عن الجماعة وترك التفكير في أهداف الدين ومراميه وأصوله ويحتج — باسم الإصلاح — الى الإيمان بمبادئ أخرى تخالف ديننا وتقاليدنا الموروثة ،

لقد سبق الإسلام إلى تقرير كل ما هو حق وخير ، وإل تطبيقه تطبيقاً عاماً على الناس كافة دون نظر إلى أجناسهم وعناصرهم وأديانهم لقد سبق فلاسفة الاجتماع المحدثين إلى وضع أصوله . روضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق والتفكير ولم يجعل المعرفة الإنسانية حداً ، وكفل حقوق المرأة والعامل والزارع والحادم ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والانسانية لحسب دون النظر إلى التفسيرات الاقتصادية المادية التي هي الآن أساس الحياة الحاضرة .. وسبق إلى توطيد دعائم العدالة والمساواة بين الناس ، وإلى النظم الديمقراطية الشورية ، وتقرير مسئولية الحاكم وإلغاء الفوارق بين الطبقات والعناصر . وإلى محور الأمية . وبجانية التعليم والعلاج وتقرير مبدأ الضمان الاجتماعي للمجازين عن الكسب : مسلمين وغير مسلمين وحارب الجشع الاقتصادي والربا والاحتكار والاستغلال لقد فكر بعض المسلمين على عهد رسول الله أن يؤجروا أراضيهم الواسعة التي لا يزرعونها للفقراء ، فنهأهم الرسول

إلى الشام وإلى الروم وغيرها . الأكل : ما يؤكل . قامت : أخرجت خيراتها ترأمة : تعطف عليه . يصدف عنها : يمرض عنها ، تصدى له : تتعرض . النية : الغنمة . يوم ظمته : يوم وفاته . نظر اليكم : اهتم بصالحكم وفكر في شأنكم إذ عهد إلى عمر . أشدكم الله : أقسم عليكم بالله .

قائلا: « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يهاجرها إياه، وحجبر  
هم على الأشراف أن يهاجروا إلى البلاد المفتوحة لامتلاك أراضيها حتى  
لا يضيقوا على الناس قائلا: « ألا فإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله  
معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا ».

إن المعجبين بالحضارة القائمة إنما يعنون بها عادة السكك الحديدية  
والكهرباء والبرق والمذياع والطائرة، كما يقول برنارد شو، أما المعجبون  
بالحضارة الإسلامية فيعنون بمبادئها الروحية وغاياتها الإنسانية، وما شرعته  
للعالم من نوااميس ونظم، ومن ثقافة وعدل وحرية وخير، وبسط لسلطان  
العقل، ومحاربة للأوهام والجمود والجهل.

## البلاغة والتجديد

- ١ -

البلاغة العربية مدينة في نشأتها الأولى لجهود علماء اللغة والأدب ،  
ولشأيرة الرواة والنقاد الباحثين في أصول البيان العربي ؛ مع الأثر الفذ الذي  
أحدثه الكتاب والشعراء والأدباء في القرن الثاني والثالث الهجري .  
ولقد تلاحقت الثقافات ، واتصلت المعارف ، وتبدلت الأفكار ، في  
عواصم العلم والثقافة في العالم الإسلامي القديم ، على أيدي العرب الذين  
تبحروا في اللغات الأجنبية ، والموالي الذين حفظوا اللغة العربية وأجادوها ،  
والمترجمين للذين كانوا همزة الوصل بين الثقافات القديمة والثقافة العربية  
الإسلامية الأصيلة .

كان خلف لا يفتقر له غبار في صناعة النقد ، لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته  
لها ، (١) ، وكان أبو عبيدة يعجب من فطنة بشار وجودة قريحته وصحة  
نقده للشعر (٢) ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه (٣) . وكان  
الجاحظ (٤) يرى أن بشاراً زعيم المولدين . ثم جاء ابن سلام والجاحظ  
وابن قتيبة والمبرد وابن المدبر وابن المعتز ، فكان لجهودهم أثر كبير في نشأة  
البلاغة ونمو البحث في أصول البيان .

ولاننى جهود طائفة أخرى من العلماء في إثارة البحوث البلاغية والتعليق  
عليها ، وتلك الطائفة هي جماعة العلماء الذين شغلوا بالبحث في إعجاز القرآن

(١) ١/١٩٧ الممددة . (٢) ٢٠٧ طبقات ابن سلام .  
(٣) ٣٢٢ الأغاني (٤) ١/٩١ الممددة

الكريم وتفهم أسرار هذا الإعجاز والتأليف فيه ، فكشفوا الكثير من غوامض البلاغة وأصولها ، ومن هؤلاء أبو عبيدة والمجاهد وسواهما من أئمة المعتزلة ولحوقها .

وعلى أيدي قدامة وأبي هلال والآمدى والقاضى والجرجاني وغيرهم من أئمة النقاد في القرن الرابع الهجرى ، نرى البحث البلاغى ينمو ويقوى ويزدهر . . ثم تلامم الباقلاني وابن سنان وابن رشيق من علماء النقد والبيان .

ولقد لمعت عبقرية عبد القاهر الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ هـ في هذا العهد وكان مظهر هذه العبقرية الناحية كتابان جليلان ألفهما قبل وفاته بقليل هما : ( دلائل الإعجاز ) و ( أسرار البلاغة ) اللذان يعدان حتى اليوم أصلاً ضخماً من أصول البيان ومجىء البلاغة والنقد والموازنة .

وبعد عبد القاهر انطفأ السراج ، وذبل العود ، وأصبحت الأذواق بالمرى والمعجز ، كما أصبحت البلاغة بالتأخر والاضمحلال . . وبعد نحو قرن ونصف قرن ظهر لجأة السكاكى بعقلية المنطقية وذوقه الأعجمى ؛ فأحال البلاغة إلى جدل عقيم فى الألفاظ والأساليب ، وإلى قواعد جافة لاصلة لها بالذوق ولا بالحياة ؛ وكثر تلاميذ السكاكى ، وانتشر مذهبهم فى البلاغة الذى يمثل القسم الثالث من كتابه ( المفتاح ) ، والذى عنى فيه مؤلفه بالقصور لا باللباب ، وبالتواضع لا بالحقائق ، ولا تزال دراستنا للبلاغة حتى اليوم قائمة على أصول مذهب السكاكى وتلاميذه وحدهم دون سواهم .

ولقد نهض جماعة من أدبائنا يدعون إلى التجديد في البلاغة . فن قائل ، إن الكتب القديمة يجب أن تحمل عليها كتب أخرى مؤلفة على النهج الحديث ، ومن دعاة إلى تلقيح البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية في شتى اللغات الحديثة الأوروبية ، ومن تاهجين متأرجح القرب في بحث أسرار البلاغة وأصولها ، ومن متادين إلى مذاهب البلاغيين القدماء : من أمثال عبدالقاهر وقدامة وأبي هلال .

وهكذا تعددت الآراء ، ومخاضت الأفكار ، في التجديد في البلاغة ، وبيان كيف يكون هذا التجديد ، على أرب أدراك علمائنا المعاصرين وأدبائنا المشهورين لاتساع تساعد على الوصول إلى هدف أو غاية يتشدها المشتقون على البلاغة العربية اليوم . والذين يحاولون التجديد فيها يكتفون بنقل أفكار الغربيين دون فهم أو نقطة فكرية أو إلهام ما يثرائنا القديم الخالد في البلاغة والبيان والنقد .

ومن أمتع صور البحث البلاغي والنقد البياني هذه الدراسة الجميلة التي نشرت في مجلة الأزهر - عدد ربيع الأول ١٣٧٣ هـ - بعنوان علوم البلاغة في الميزان ، والتي اتجه فيها الكاتب إلى إثارة المسائل ، وتنشيط الأفكار ، وتحريض الأذهان على النظر والبحث والنقد والاستنتاج والكشف ، وحفز المهتم للبحث والابتكار . . وهي محاولة مجدية قوية في سبيل التجديد البلاغي المنشود . وأول ذلك الأسرار البلاغية الدقيقة للحذف ، ومحاولة الكشف عنها ، فلقد عرض عبدالقاهر الجرجاني للحذف ومكانه من البلاغة دون أن يبين سبب هذا الحسن والإحسان ، وسر هذا الجمال البياني الأعزاء ،

وجاء السكاكي والخطيب وتلاميذهم لجمعوا الحذف في موضعه كالذكر في موضعه ، لسكل مكانه من البلاغة ، ومنزلته من سحر البيان ؛ وأبو أن يكون للحذف مزية على الذكر بل هما يحصلان البلاغة ويوجدانها ، ثم عللوا الحذف بعامل متكلفة لاصلة بينها وبين أحكام النون الألفي السليم .  
ويحاول الباحث أن يعلل سر جمال الحذف وبلاغته بأسباب نفسية وأمور بيانية ، منها الهجوم بالاسماع على المطلوب دفعة ، والحدة التي تراها في أسلوب الحذف ، ومنها أن المحذوف تدل عليه القرائن فإذا ذكر كان ثقيلًا في موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين ، فيربط بذلك بين البلاغة وأحكام النون وأسرار البيان وملكات النفس الإنسانية .

ومن البحوث التي أثارها الاستاذ أسلوب التجريد ، وتحليل ألوان جماله وسر هذا الجمال ، بعيدا عن تكلف القدماء البغيض وتأويلهم المصنوع .

وكذلك عرض لأسلوب : رأيت اليوم حاتما ولقيت مادرا وسمعت سحبان رما أشبه ذلك ، مما أوله البلاغيون لجمعوا حاتما هنا كأنه موضوع للجواد ، فانزعوه من معناه وهو العملية على الرجل المعروف من طيء ، وهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعبود والفرد غير المتعارف ، وهو من يتصف بالجود ، فيصير استعماله في غير المتعارف استعمالا في غير ما وضع له فيكون عندهم استعارة .

وأستاذنا محمد عرفة يبحث ذلك كله ويناقشه ويتقده ، ويحاول الوصول إلى الصواب في أمره ، حيث يرى أن المراد هنا تشبيه هذا الكريم بحاتم في جوده ، لحاتم باق على معناه دون تغير أو تبديل .

وهكذا نجد نهجاً جليلاً في البحث والمناقشة، ومحاولة الكشف عن أسرار البلاغة وأصولها، وهو نهج طريف ما أجدر الأزهر أن يسير عليه في الدراسة والبحث، لتتكون دراسة البلاغة فيه مجدية منتجة، وليحاول أن يقف على قدميه أمام هؤلاء الذين يزرون بالبلاغة القديمة إزراء شديداً.

إن القديم ليس كله صواباً، وليس كله خطأ، بل فيه الصواب، وفيه الخطأ، وفيه سوى ذلك ألوان من القصور العلمي الذي يجب ملاقاته، فاجتهدنا في الأزهر بتجديد البحث والدراسة في أصول بلاغتنا، وفي مذاهب البيان وأسرارها.

### حركة التجديد في الأدب في العصر الحديث

جاءت على الأدب الحديث بعد الحرب العالمية الأولى عوامل عديدة أدت إلى ذبوح آراء كثيرة حول التجديد في الأدب والشعر، وإلى ثورة لقيف من الأدباء والنقاد المعاصرين على الأدب المحافظ الاتباعي (الكلاسيكي) ودعائه وأعلامه، ومن هذه العوامل:

١ - انتشار الثقافة الأدبية: لكترة المدارس والمعاهد والجامعات، وبفضل الأزهر الشريف، وعن طريق المجمع والندوة الأدبية، ومن بينها المجمع اللغوي في مصر، والمجمع العلمي في دمشق، والمجمع العربي في بغداد، وبفضل المطابع التي تخرج العديد من الكتب المؤلفة القديمة والحديثة والمترجمة كل يوم.

٢ - ذبوح الأدب الغربي الحديث في محيطنا الأدبي، وتأثر طبقة من أدبائنا ونقادنا به.

٣ - تجديد مظاهر الحضارة ومشاهد الحياة يوماً بعد يوم، مما يترك أثره في العقول والنفوس والمشاعر.



٤ — انتشار روح الثورة على قدمينا الأدبي بين طبقات الأدباء التي تفرجت من الجامعات المصرية والمعاهد الغربية — أما الأدباء الذين نهلوا من الثقافات الأدبية القديمة وحدها فقد تفاوتت ميولهم وأذواقهم نحو حركة التجديد في الأدب والشعر، ففريق انصرف عنها وعندها جحدوا لثرائنا الأدبي القديم، وفريق شابهوا آمن بها مع الداعين إليها، وفريق وقف موقفا وسطا، فهو يأخذ عن القديم البلاغة والطبع والذوق والموهبة ويأخذ عن الحديث المعاني والأخيلة والهدف والرسالة.

ولقد تعددت مناحي التجديد في الأدب، فدعا فريق إلى الشعر المرسل (١) ودعا آخرون إلى الشعر الحر (٢)، وتعددت مذاهب الشعراء في شعرهم :

١ — فريق أخذوا بما كون القدماء في فصاحتهم وفي منجزهم في نظم القصيدة، مع التأثر بالحياة والعوامل الجديدة التي أثرت في الأدب: شعره وثره، ومن هؤلاء: البارودي وشوقي وحافظ والإسماعيلي والجارم وسوالم، ويلقب مذهب هؤلاء في الشعر بالمذهب الاتباعي (الكلاسيكي).

٢ — وفريق دعوا إلى التجديد في الشعر والخروج فيه على منجز القدماء؛ وجعلته متمشيا مع ناموس التجدد في الحياة والحضارة والثقافة، وجعله تعبيراً خالصاً عن نفس الشاعر ومشاعره وآماله وآلامه، وسمي مذهب هؤلاء في الشعر بالمذهب الابتداعي (الرمائضي)، ومن هؤلاء: مطران وشكري وأحمد زكي أبو شادي وإبراهيم ناجي وسوالم من شعراء مدرسة أبولو.

(١) هو مالا تقيد قافية.

(٢) هو مالا تقيد قافية ولا وزن.

٣ - وفريق آخرون رأوا أن الشاعر يجب أن يكون واقعيا في شعره ، يتحدث عن الحياة والمجتمع وواقع الشعوب العربية مصورا لآلامها ، داعيا للثورة على الجود والفقر والمذلة وغيرها من أمراض المجتمع العربي ، ومذهب هؤلاء هو المذهب الواقعي ، ومنهم طائفة من الشعراء الشباب الذين تقرأ لهم ، ونسمع عنهم .

وفي الأدب شعره وثره جدت القصة والمرحبة ، وذاعت في النثر المقالة الصحفية . ودعا لفيف من الأدباء إلى التجديد في اللغة والأساليب بتجديدا لا يخرجها عن العربية ولا يقف بها عن القدرة على التعبير عن مشاعرنا وعن مظاهر الحضارة التي تستجد في الحياة كل يوم .

ونحن نقف من حركة التجديد في الأدب موقفا وسطا ، فنقبل من الآراء كل ما لا يخرج عن أصول اللغة والأدب العربي ؛ وننبذ كل ما يعد هجوما على اللغة العربية وآداب القرآن وأسلوبه .

ولاشك أن على النقاد واجب توجيه الأدباء ، وتوجيه حركة التجديد والدعوات الجديدة التي ينادى بها فريق من الأدباء .

ونحن نتفاد بمستقبل زاهر للأدب العربي ؛ شعره وثره على السواء ، ونتوقع له أن يصبح في المستقبل القريب أدبا إنسانيا عالميا ، له خصائصه الفكرية والتوجيهية ، وله ميزاته الرفيعة في كل منحنى من مناحيه .  
وسيصبح الأدب العربي في القريب مصدا للدعوة إلى الحضارة الإسلامية ومجد العروبة وعزتها ومفاخر المسلمين .

ويقول بعض أدبائنا المعاصرين :

« يرى الناظر في الأدب العربي الحديث أنه قد تبع من تبعين مختلفين

كل الاختلاف وتأثر بهما واستمد منهما ، وغاية الأمر أن الآثار الأدبية قد يظهر في بعضها هذا النبع أكثر من صاحبه ، وقد يكون العكس ، هذان النيمان أو الحركتان أو العنصران هما : الثقافة الأجنبية والثقافة العربية القديمة التي تعتمد على الأدب القديم ، والتي نشأت من الأزهر ودار العلوم وعموما ، فمؤلا نشروا تعليم اللغة العربية وآدابها في المدارس ، وقاموا بنشر الثقافة العربية بجانب الإنجليزية والفرنسية وغيرهما .

وكان من أثر هذا : التأليف في الموضوعات القديمة ، ونشر الكتب القديمة ، كما يفعل الأدباء العرب والمستشرقون .

وهذا هو ما يفسر الصراع بين المدرسة القديمة والمدرسة الحديثة ، أو بين شيوخ الأدب والعلم وشبان الأدب والعلم .

وهاتان الحركتان — الحركة الأوروبية والحركة العربية — وامتزاجهما على أشكال من المزج ، هو الذي يلقي الضوء على نتائجنا الأدبية على اختلاف أنواعه .

امتزج هذان العنصران فكان لنا أدب سياسي يتفق وموقفنا ، ويتفق وحياتنا ، وما كان يكون ذلك لو لم يمتزج العنصران ، وربما كان محمد عبده وسعد زغلول خير من يمثل هذه الفكرة ، وفيهما اجتمع العنصران وتألفا .

خذ لذلك مثلاً : أدبنا السياسي كشمس حافظ ، وخطب سعد ، ومقالات الصحف في الحركة الوطنية ، فهي عربية قومية في لغتها ونزعتها ، وهي عربية تحذو حذو مختلف الآداب في كيفية معالجة الموضوعات في الصحف وعلى ألسنة الخطباء الخ . .

ولنتظر مثلاً إلى الشعر الحديث ، لقد كان قبيل البارودي منحطاً منحللاً ،

وكان أغلبه نظما لا شعرا ، يستعمله الشعراء في التباهي والتعاضد وما شاكل ذلك في أسلوب منقطع ، أو في الخلاعة والمجون في ألفاظ بذية .

لجاء البارودي وجده ، ولكن تجديده لم يكن من نوع التجديد الذي يسود الآن من تطعيم الشعر العربي بالشعر الأجنبي ، إنما كان تجديده من ناحية الرجوع بالشعر العربي لا إلى العصر المنقطع ، بل إلى العصر البعيد الراقى ، فترسم آثار أبي نواس وأبي فراس والمتنبي والشريف الرضوي ، من حيث الأغراض والمعاني وخزنة اللفظ ، فلما جاء حافظ وشوقي وآخرهما كان تجديدهما أوضح ، ولكنهما مع هذا كان حظهما من القديم أكثر من حظهما من الجديد . فلما رحلوا إلى جوار ربهما وقف الشعر أركاد ولم يتقدم كثيرا . ولعل السبب في ذلك هو ما أسلفنا من نظرية امتزاج الثقافتين . فالشعر القديم كان مناسبا لذوق القديم ، فلما تطور ذوق الأمة رأى أمامه شيئين مختلفين تمام الاختلاف ، فأما أحد الشعراء فشعر على النمط القديم في أوزانه وقوافيه وأغراضه ومعانيه ، وهذا لم يعد غذاء كافيا ، لأن ذوق الأمة اجتاز هذا الطور ، وشعر أمعن في تقليد الشعر الأجنبي في معانيه وأسلوبه وصوره وأخيلته لجاء نائبا عن الذوق الشرقي ، ولم تعجبه صياغته ولا ألف تعبيراته : كالأشاعلى المجهول ، ومقابر الفجر ، ونحو ذلك .

وهذا السبب الذي دعا إلى تأخر الشعر هو بعينه الذي دعا إلى نجاح النثر ، وخاصة في بعض نواحيه كالمقالة ، فالكتاب استطاعوا أن يتحرروا من كثير من قيود الماضي كالإغراق في المحسنات اللفظية والسجع ونحو ذلك ، واقتبسوا من الغربيين عناصرهم كالتحليل الدقيق والبساطة في التعبير ، وتمشوا في تعبيرهم وموضوعاتهم مع رقى عقلية المثقفين ، فنجحوا حيث لم ينجح الشعراء .

لجى النثر طلقا ، وتحرر من كثير من قيوده ، واستفاد من الأدب الغربي أكثر مما استفاد الشعر ، سواء في ذلك موضوعاته وأساليبه . ولم يبق من التزم المنهج القديم إلا عدد قليل من الكتاب . على أن النثر الجديد لم يكن كله وليد الآداب الأجنبية ، بل كان وليد الحركتين معا ، فأساليب قادة الكتاب نتاج مطالعات في كتب الأقدمين ومطالعات في كتب الغربيين ، ولكنهم نجحوا في التخيير ومقدار التحرر ، قرأوا ابن المقفع والأغاني وأمثالهما ، وانطبعت في أذهانهم صور للأساليب الرائعة ، ثم قرءوا الأدب العربي فتشبعوا بموضوعاته وأساليبه أيضا ، واشتقوا عنهما نمطا جديدا لا شرقيا خالصا ولا غربيا خالصا ، بل هو شرقي غربي معا ، وهذا هو السر في نجاحه .

وأما في النثر القديم جزالة في الأسلوب فاقترضوا منها ، ولكنهم رأوا فيه إيجازا قد يدعو في كثير من الأحيان إلى الغموض فاعرضوا عنه ومالوا إلى الوضوح ، وكان أكثر قادة الكتاب في مصر صحفيين فالوا إلى الإطناب ، ورأوا كثيرا من موضوعات الأدب القديم لا تناسب حياتنا الواقعية فقللوا الفرجة فيما يكتبون من موضوعات ، وحملتهم الأحداث السياسية على أن يكثروا القول في السياسة والحرية وحقوق الأفراد وحقوق الأمم ، فكان من ذلك كله مراعاة حسنة لأفلامهم لم تتوافر للشعراء ، ومراعاة حسنة لاستنهم ، فنمت ناحية الخطابة عندهم ، وشعر المصلحون بنواحي ضعف كثيرة في الحياة الاجتماعية ، فاختلوا يعالجهونها بالمقالات ينشرونها في الصحف والمجلات وفي كتب خاصة ، هذا يعالج شؤون المرأة ، وهذا يعالج البؤس والشقاء ، وهذا يعالج القيود التي كبلت بها الحرية ، فأثر هذا كله أثرا صالحا في أن يكون للأدب الحديث موضوع بعد أن كان جملة ألفاظ جوفاء .

وكان من أوضح آثار الحركة الأجنبية في الأدب العربي الحديث : القصص والتمثيل ، فالأدب الأوروبي الحديث عماده القصص ، وكان هذا القصص حديفا في اللغة العربية في مصر والشرق ، ترفع عنه الأدب الأرستقراطي ونعم به الأدب الشعبي ، فقد كان الشعب ينعم بقصة أبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس وألف ليلة ، كما تنعم البيوت بأحاديث المعجزة ونحو ذلك . وأما الأدب الأرستقراطي فكان يرفع عن ذلك ويتوقر ويعد من سقط المتاع .

فكان من نتيجة الاطلاع على الأدب الغربي وتعرف منزلة القصة أن قلدهم كتابنا ، فبدأوا - أولا - يترجمون ثم أخذوا يؤلفون ، ويجعلون الحياة المصرية موضوعا لرواياتهم ، وأنشأت بعض المجلات التي تقتصر على مثل هذا النوع من الأدب ، ووجد الكتاب الذين يتخصصون لذلك .

وكذلك كان الشأن في التمثيل والروايات التمثيلية ، فقد سارت في هذا الطريق نفسه ، فوجدت الروايات التمثيلية المترجمة والمقتبسة والمؤلفة ، ووجد المسرح لمرض هذا النوع من القصص ، ولا يزال هذا الامتزاج يعمل عمله ويسير في قوة حتى يبلغ الأدب العربي مبلغه السلائق به .

### البلاغة الأدبية

[ذا كنت من هؤلاء البلاغة الأدبية ، وبرتاج الأسلوب الجيد ، ريسجيه البيان الرائع فاعلم أن لديك موهبة أدبية كامنة تحب أن تظهر ، وفطرة بيانية تختبئ في جوارحك وأعماقك نفسك تريد أن تتحرك ، وأنت حينئذ

عندك استعداد لكي تكون أديبا ، وفيك رغبة قوية في حمل أدي مشمر ،  
ولديك ذوق يحب أن يكتمل ويقوى على تحمل تبعات الحكم الأدبي .

فاذا أردت أن تسير في الطريق ، وأن لا تقف دون غايتك وممراتك ،  
فطليك إذن أن تنهض بمعب الحياة الأدبية التي ترمقها وتنشد أن تحياها .

غذ نفسك بشئ الثقافات الأدبية ، القديمة والحديثة على السواء : قراءة  
ونهما وحفظا وتدوفا . . ثم ثقافتك العقلية بالاطلاع على مختلف العلوم  
والفنون ، وتابع الفكر الإنساني في خطواته المتوالية السريعة الرائدة ،  
واحرص على أن تكون ملبأ بكل ما يجد في الحياة من جديد ، وعلى قراءة  
سير أعلام الأدب والشعر ومذاهبهم الأدبية وأثرهم في نهضة الأدب وازدهاره . .  
فإن رأتك الحظ ، فألمعت بلغة من اللغات فأحرص على الوقوف على ثقافتها  
وآدابها ، والإحاطة بقرائنها الفكرية والأدبية ، وإلا فأقرأ ما يترجم من  
آدابها وعلومها وفلسفتها إلى لغة بلادك ، وحاول أن يكون له أثره في عقلك  
ومشاعرك ، وأن تلقح به فكرك ومعارفك وثقافتك ، فإذا بلغت هذه الغاية  
فقد قاربت أن تصل إلى أميتك ، وتظفر ببقيتك وطليتك ، وعندئذ قف  
أمام نفسك لتجاسبها ، واعترض الطريق أمام ذوقك تناقضه الحساب ،  
وساكن ملكائك الأدبية : وكيف ارتاحت لهذا الأثر الأدبي ؟ ولم تبرز  
إعجابا بروائع البلاغات ، وجيد الفصاحات . فإن رأيت نفسك قادرا على  
الوقوف في الميدان فاعتقد أن لك حظا في الأدب ، وإنك على وشك أن  
يوصى إليك برسائلك الأدبية ، وإلا استغنى أستاذك واستغنى برأى  
مرشد أبوجهك نحو الهدف ، وليبين ما خفى عليك من أسرار الصناعة  
الأدبية ، ومهما كان فهدب عواطفك ورب مشاعرك على دقة الإحساس

ونيل التأثر ، وسمو الإدراك ، ونم خيالك بالاستغراق في مشاهد الكون ومجال الوجود ومظاهر الحياة والطبيعة ، ودع روحك تحس ديب الفلة ، وتسمع حديث الزهرة وتنظر إلى الأشياء صغيرها وكبيرها نظرة عميقة نافذة عليها صوفية وتبتل واستغراق ، ثم حرك فكرك واتركه يتأمل في كل شيء ، ويبحث عن أسرار كل غامض ، يستجلي خفايا كل بعيد غائب عن حواسنا ومداركنا .

ثم حدد رسالتك الأدبية في الحياة ، وأبدأ في أداء هذه الرسالة بقوة وعزم وثقة ، فقد أصبحت من غير شك أديباً . فإن كنت تحب أدب المقالة أو القصة أو الرواية أو التمثيلية فسيرشدك ذوقك إلى ما يعصمك من الخطأ ويجنبك العثار ، وإن كنت هيأت نفسك لتكون شاعراً فقد أتاح لك القدر الحظ الأول من ملكات الشعر ومواهبه ، وإن يستعصى عليك جيد الشعر ، والمران هو السبيل إلى الإجادة على أن من الناس من يرثون ملكات العربية من أصولهم العربية . وهؤلاء يستطيعون أن يلعبوا في الأدب سريعاً إذا حاولوا السير في الطريق بقوة وعزم ، ومنهم من تدفعه إلى حب الأدب وتذوقه عوامل النشأة والتربية وطبيعة الثقافة الأدبية التي يوجه إليها ، ومنهم من ينبغ في الأدب كبيراً لفقدان التوجيه المبكر له . . والذي يساعد على النجاح في الميدان الأدبي كثيراً وبسرعة هو تمهيد الأستاذ للأديب الناشئ وتوجيهه له . . وأحب أن لا يسمى الأديب أول أمره إلى الظهور في الميدان الأدبي قبل أن تنضج ملكاته ، وأن لا يتخذ من الصحف والمجلات أستاذاً له في صناعة الأدب ، فإن ذلك لا يكسبه إلا ثقافة عامة يسيرة . . والمجاهات الأدبية التي يشترك فيها الأديب الناشئ من غير طريق وأيسره لإتمام المواهب الأدبية وتقويتها .



### الحطيطية الشاعر

- ١ -

هو جبرول بن أوس بن مالك بن عيس بن بغيض من غطفان . كان يكنى .  
أبا مليكة باسم إحدى بناته وغلب عليه الحطيطية لقباً له لقصره وقربه من الأرض  
ويتهم الناس الحطيطية في نسبه . وكان الحطيطية يقول : « إنما أنا حسب  
موضوع » ، ويقال إن والدته أمة ، ولم تكن زوجة أبيه . وإن الحطيطية انتسب  
إلى غير أوس ، ثم أظهرت أمه أخيراً نسبه من أوس .  
ونرى أن هذا هو سر تنقل الحطيطية بين القبائل وانتسابه إلى هذه حيناً  
وإلى تلك حيناً آخر . وسأل أمه مرة عن أبيه وكان اسمها الضراء ، فخلطت  
عليه ، فقال الحطيطية في ذلك شعراً :  
تقول لي الضراء لست لواحد ولا اثنين فانظر كيف شرك أولئك  
وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضللت هيلك ألما تستفي من ضلالك ؟  
وربما كان هذا الشعر موضوعاً على الحطيطية ، وذلك الاتهام في نسبه أثراً  
لعداوته الناس وهجائه لهم .

- ٢ -

ولشأ الحطيطية في نجد ، يقيم بجوار أوس والده ، وبعد حين توفي والده .  
فذهب إلى إخوته من أوس يطالبهم بميراثه ومدحهم بقوله :  
إن الإمامة خير ما كنتم أهل الغرية من بني ذهل  
قوم إذا انتسبوا ففرعهم فرعى وأبعد أصلهم أصل  
فأعطوه نخلات سميت باسم زوجته فقيل لها نخلات أم مليكة ، واسم زوجته  
« أماية » فنضب عليهم وهجاءهم بقوله :  
تمنيت بكراً أن يكونوا عمارق . . وقوس وبكر شر تلك القبائل

وغاضبهم فعاد إلى بني عيس ينتسب إلى أبيه أوس بن مالك . وظهر  
الإسلام وظلل العرب بلوائه فأسلم الحطيئة وإن كان الإسلام لم يذهب له خلفاء ،  
ولم يرق له طبعا ، ولم يغير وحشيته وبدأوته . ثم مات الرسول صلى الله  
عليه وسلم . وارتدت بعض القبائل العربية فتمت الزكاة ، وارتدت الحطيئة  
معه ، وقام لمحاربة جيوش المسلمين مع المرتدين وأخذ يجرس على المسلمين  
ويجهر أبا بكر خليفة رسول الله ، وما قال في ذلك :

أعلمنا رسول الله إذ كان بيننا      فيا لعباد الله مال أبي بكر ؟  
أبورشما بكرا إذا مات بعده      وتلك لعمرك قاصمة الظهر  
فقوموا ولا تعطوا اللثام مقادة      وقرمووا لو كان القيام على الحجز  
وانتهت فتنة المرتدين وخضع الناس لسلطان الإسلام من جديد وعاد  
الحطيئة مسلما كما كان . واتصل الحطيئة بكثير من سادات العرب وولاتها  
وأمرائها مادحا إذا أعطوه ومهاجيا إذا حرموه العطاء كما اتصل بعمر ، ومن  
بعده من الخلفاء ومات سنة ٩٥ هـ في آخر حياة معاوية .  
وهكذا تنتهي حياة الشاعر التي كانت قصة من قصص الخصومة والعدوان  
والحرب الاجتماعية بين الشاعر وخصومه .

أثر حياته في شعره :

أولا : كان اختلاط نسب الحطيئة وضعته ذا أثر كبير في نفسيته وفي حياته  
وفي شعره وشاعريته فاعطيه على المدح والمجاء .  
ثانيا : كان الحطيئة راوية لزهر ، وشعره متصلا ببيت زهير فأثرت هذه  
التلذذة الشعرية في شعره ومنعبه في نظم القصيد .  
ثالثا : حياة الحطيئة في البادية جعلته بعيدا عن مظاهر الحياة الجديدة الإسلامية

وجعلت شعره قاصراً على وصف حياة البادية ومظاهرها ،  
وأياً : كان إسلام الحطيمية ومن شاهده من أهل البادية الذين يعيشون  
بمدين عن مكة والمدينة مبهطى الوحي لاعن تدين وعقيدة وتحصية ولكن  
عن رغبة ورغبة فلم يؤثر القرآن الكريم ولا الحياة الإسلامية الجديدة تأثيراً  
كبيراً في شعره وشاعريته ، ولذلك كان الحطيمية شاعراً بأوسع معاني  
هذه الكلمة وامتد أثر الجاهلية في شعره حتى بعد الإسلام ، وغلا شعر الحطيمية  
من مظاهر الحياة الإسلامية الجديدة ومعانيها وأنكارها ومبادئها بماستتبع  
من تحول ما في الألفاظ والأساليب والخيالات .  
خامساً : شدة نهم الحطيمية وجشعه وقلة وقائه للناس صاغت شعره على أنماط  
خاصة وألوان كان من مظهرها المدح والمجاء .  
أسباب شاعريته

أولاً : تلذذته على زهير الشاعر الجاهلي المشهور .  
ثانياً : حدة مشاعره وعواطفه وبرمه بالحياة وضجره من الناس .  
ثالثاً : كثرة الخصومات التي اشترك فيها وكان بطلها .  
رابعاً : شعوره بضالة نسبه وحسبه ولد في نفسه عواطف الحب الشديد  
والبغض الشديد .

عامساً : معيشته في البادية ، والبادية منبع الشعر وغذاؤه .  
سادساً : ظهور الفقر الجديد بالجزيرة العربية وهو الإسلام ووقوف  
الحطيمية مع الإسلام حيناً وعليه حيناً آخر . قوى من بنا بيع الشعر في نفسه .  
أخلاقه وأثرها في شعره

أولاً : كان الحطيمية طليق اللسان . حاد الطبع . كثير الخصومات وقد  
أورثه ذلك شعوره بضالة نسبه وعرفته اللغامز في نسبه ، فنشأ على حذر  
(٧)

شديد للحياة ، والناس وقد ظهر ذلك في شعره واضحا . مما تلمسه في مدائحهم وأهاجيه التي اشتهر بها .

ثانيا : وشعر الخطيئة بكثرة أطماعه ، وشدة جشعه ، وسعيه للبال ، وتحمله كل شيء في سبيله . ومما يؤثر عنه قوله لابن عباس : والله يا ابن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشهر الماضين ، أما الباقر فلا تشك في أني أشعرهم وأقدمهم سما إذا رميت .. وقد ظهر أثر ذلك في شعر الخطيئة في كثرة مدائحهم وتلقبه للناس بمدحهم طمعا في فضل عطايتهم وفي تكسبه الشديد بالشعر واتخاذهم حرفة يعيش عليها وبأكل منها .

ثالثا : وكان الخطيئة حارسا شديدا لبيتل بطرد الضيفان ، ويؤذي الجيران ، وله في ذلك الكثير من النوادر . ويروي أن رجلا أتاه ونادى عليه : يا صاحب الغنم ، فرقع الخطيئة عصاه فقال الرجل إنني ضعيف فقال الخطيئة : للضيفان أعددتها ؟ فاهرب عنه . ويقول الأصمعي : ما نزل عليه ضيف قط إلا هجاء .

هذا الجانب من جوانب أخلاق الخطيئة يفسر لنا خلق شعر الخطيئة من الدعوة إلى الكرم وعدم إلقاء الحكم في الإساءة بالجوهر والإحسان . وأما الآيات : ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد فالصحيح نسبتها لحسان أو لابنه عبد الرحمن .

وهذا لم يمنع الخطيئة من أن يمدح الكرماء وينوه بما يبذلونه من عطاء لأنه في ذلك يبحث عن منفعة ويسير وراء هدفه .

رابعا : ومما يتصل بأخلاق الخطيئة من قريب : عدم حرصه على الظهور للناس في هيئة جميلة ويروي أنه كان يرى الهيئة رثيا ، قبيح المنظر ، وأنه كان يظهر في المجالس فلا يعرفه أحد إلا بعد أن يعرفهم بنفسه .

أراؤه في الشعراء :

وأنتم تعلمون أن الخطيئة تليد زهير في الشعر لذلك نحمد كثيرا ما يفضل زهيراً ، سأله ابن عباس : من أشعر الناس ؟ فقال الذي يقول :  
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفرضه . ومن لا يتق الشتم يشتم وهو زهير . قال ابن عباس : ثم من ؟ قال : الذي يقول :  
ولست بمستيق أحلا تله على شعث أى الرجال المذهب  
وهو النابغة . ومذهب النابغة في الشعر وتعبيره قريب من زهير ، قال الخطيئة : راسكن الضراعة أفسدتكما كما أفسدت جرولا ( يعنى نفسه ) يريد الخطيئة بذلك تكسب الثلاثة بالشعر وإذراء التكسب بهم جميعا . وسأله عتيبة بن النعمان العجلي من أشعر الناس ؟ قال الذي يقول : ومن يجعل المعروف الخ .

وإن كان الخطيئة يورى بهذا البيت عن خلقه المأثور الذي جعله لا ينجومه أحد إلا إذا اتقى شره . وسأله سعيد بن العاص في موقف آخر : من أشعر الناس ، ففضل أبا ذؤاد الأيادي . ثم عبيد بن الأبرص ثم نفسه . قال لسعيد ، لحسبك في عند رغبة أو رهبة إذا عويت في إثر القوافي عواء الفصيل المصادى برتفضيله لأبي داود أولا لشهرة هذا الشاعر بمذهب التجويد والتجوير الذي ذهب إليه زهير . وفي وفاة الخطيئة سأله الناس أن يوصى فقال لهم : ويل للشعر من راوية السوء . أبلغوا غطفان أن شاعرهم الشماس أشعر العرب ، وأبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مفار القتل شدت يذيل  
وأبلغوا الأنصار أن شاعرهم حسان أشعر العرب حيث يقول :

يقشون حتى ما تهر كلاهم لا يسألون عن السواء المقبيل  
أراء النقاد في شعره :

أولاً : سئل كثير من أشعر الناس ؟ ففضل الخطيئة .  
ثانياً : قال أبو صفوان ما من أحد إلا لو شاء أن أجد عليه مطعنا في شعره  
لوجدت إلا الخطيئة .

ثالثاً : وقال أبو حماد الراوية : ليس أحد بعد زهير أشعر من الخطيئة .  
رابعاً : وقالوا فيسه : ما طلب الإنسان عيباً في شعر شاعر إلا وجده  
إلا الخطيئة .

خامساً : قال أبو الفرج صاحب الأغاني فيه : هو شاعر من خول الشعراء  
ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء ،  
والفخر والنسيب ، مجيد في ذلك أجمع . وهو مختصرم أدرك الجاهلية  
والإسلام .

سادساً : قال أبو عمر بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت  
الخطيئة .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس  
سابعاً : قال الجاحظ ، ما زال الناس يفضلون قول الأعشى في النار :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق  
حتى قال الخطيئة :

مضى تأته تمشوا إلى ضوء ناره تجدد خير نار عندها خير موقد  
فاهمل بيت الأعشى وغلبه .

ومن أمثلة شعر الخطيئة التي تجمع اشراق الديباجة ، وتأنيق الصوغ وقوة الرصف ودقة الوصف : قوله يصف أعرابيا سمحا كريما محبا للفلاوات ، ويصف ما كان من حيرته حين نزل به ضيف فلم يجد ما يطعمه به فهم بذبح ابنه فيسبح له فطبخ من الوحش فيصطاد منه ما يقر عينه ويسر ضيفة ، قال الشاعر :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل      ببذاء لم يعرف بها ساكن رسا (١)  
أخى جفوة فيه من الأنس وحشة      يرى البؤس فيها من شراسته نعمى (٢)  
وأفرد شعب عجوزا إزاءها      ثلاثة أشباح تغسلهم بهما (٣)  
حفاة عراة ما اغتذروا خبز ملة      ولا عرفوا البرمذ خلقتوا طعما (٤)  
رأى شبحاً وسط الظلام فراعاه      فلما رأى ضيفا تشمر واعتما (٥)

- (١) الطاوى : الجائع من الطوى وهو الجوع . والواو لرب . ثلاث : أى ثلاث ليال . والعاصب البطن ، الذى شد عليها عصابة من الجوع ، والمرمل : الفقير أو الذى نفذ زاده . ببذاء : سمراء مهلكة . الرسم العلامة والآثر ، ورسم الدار ما كان من آثارها لاحقاً بالأرض .  
(٢) الجفوة : الخشونة ، وأخى جفوة : صاحب جفاء وخشونة ، الشراسة : سوء الخلق أو حدته ، والنعمى كالنعمة .  
(٣) الشعب : السرب أو الطريق في الجبل . أشباح جمع شبح وهو ما يظهر للرائى من غير تمييز . البهم : اسم جنس واحد همة وهى ولد الضأن ذكر أو أنثى  
(٤) الملة : الرماد الحار .  
(٥) راعاه : أفرعه من الروع وهو الفزع .

- وقال : هيا رباه ضيف ولاقرى محفلك لا تخبرمه تا الليلة اللحما (١)  
فقال ابنه لما رآه بحيرة : أيا أبت اذبحني ويسر له طعاما (٢)  
ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما (٣)  
فروى قليلا ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح قتاه فقد هما (٤)  
فبينما هما عنى عل البعد عانة قد انتظمت من خلف مسجها نظما (٥)  
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها عل أنه منها إلى دوما أظما (٦)  
فأمهلها حتى تروت عطاشها وأرسل فيها من كنانته سهما (٧)

(١) القرى : الكر والضيافة .

(٢) طعاما : طعاما .

(٣) العدم : الفقر . عل : لغة فى لعل ، طرا تسهيل طرا بمعنى قدم  
وأزل . فيوسعنا ذما : أى يذمنا ذما قبيحا حتى كأننا مكان محل فيه  
الدم فيسهه

(٤) فروى : تروى وتدبر . برهة : تستعمل للزمن البعيد والقليل ، فهي  
من الأخداد .

(٥) عنى ، من باب ضرب ونصر : ظهرت ، العانة : القطيع أو الجراعة  
من حر الوحش . المسجل : الحمار الوحشى الهادى والقائد

(٦) ساب وانساب : جرى ومضى مسرعا .

(٧) الكنانة : وعاء السهام . السهم : القذح أو العود من النبع إذا كان  
فيه نصل (حديدة) ، وأما إذا لم يكون فى العود نصل فهو القذح لحسب ،  
والنصب : شجر تتخذ منه السهام والقسي



نحرت نصوص ذات جمش سمينة قد اكتنزت لها وقد طبقت شجا (١)  
فيا بشره إذ جرهما نحر قومه وبيا بشرهم لما رأوا كلبا يدمى (٢)  
وبأنوا كراما قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرما وقد غنموا غنما (٣)  
وبات أبوم من بشاشته أبا لضيفهم والام من بشرها أما (٤)

#### مؤرخ الأدب الأندلسي

المقرئ شهاب الدين أحمد بن محمد أبو العباس المقرئ التليسانى (٩٨٨  
— ١٠٤١ هـ) من أفذاذ الأدباء والمفكرين العرب في القرن الحادى عشر  
الهجرى. وقد نشأ في مدينة تليسان بالمغرب الأوسط ، ورحل إلى جهات  
كثيرة في المغرب ، وإلى كثير من البلاد الإسلامية كصر والحجاز والشام  
ومات في القاهرة حيث دفن في مقبرة المجاورين عام ١٠٤١ هـ — ١٦٢٢ م  
بعد أن ترك وراءه آثارا أدبية خالدة ، وموفات ممتازة مشهورة وذكرها  
مدويا في كل مكان .

وترجع أهمية تآليف المقرئ إلى أنها دوائر معارف عامة عن الأدب

(١) النحوص : الأنان الذى لا ولد لها أو الذى منعه السمن من الحمل  
أو المعينة الشابة . الجمش : ولد الحمار . اكتنزت : امتلأت .

(٢) البشر : المرور . الكلم : الحرج

(٣) المغنم والغنيمة والغنم بالغنم : القى . والفوز بالثى . بلا مشقة .  
أو هو الغنم . والقى الغنيمة ، والغرم : ما يلزم أدائه .

(٤) البش والبشاشة : حلالة الوجه ، والطف في المسألة ، والإقبال  
على أغنيك والضحك إليه وفرح الصديق بالصديق .

العربي في الأندلس والمغرب ، وموسوعة كبرى عن الحياة السياسية والفكرية والادبية في هذه البلاد ، وقد طارت شهرة كتابه « نفع الطيب » في العالم كله ، وعد مرجعا أصيلا في الآداب العربية في الأندلس خلال الحكم العربي وقد استقى المقرئ مواد كتابه من مئات المراجع التي ضاعت بمرور الأيام ، وبقي ذكرها وآثار منها في نفع الطيب .

وقد ظل تاريخ المقرئ مجهولا ، حتى تصدى للكتابة عنه أديب تونسي محمود موهوب ، هو الباحث الحبيب المنحاني ، الذي تحدث في مفتتح كتابه الذي تحدث عنه — عن الحياة الفكرية في العالم الإسلامي في عصر المقرئ وتكلم عن حياة المقرئ وآثاره ومؤلفاته ومكانته العلمية والأدبية في عصره في شيء من الإفاضة والتحليل والبحث والنقد .

وفي آخر هذا الكتاب القيم يشكلم المؤلف عن المقرئ المؤرخ والكاتب والشاعر ويأتي بنماذج مختارة من أدبه ، ثم يخصي شئ المصادر التي رجع إليها في كتابة بحثه .

ولاشك أن المجهود الذي قام به المؤلف يعد عملا عليا وأديبا أصيلا ، وهو من أجله حري بهنئتنا ، وبهنتنة القارئ العربي في كل مكان .

#### شاعرية التيجاني بشير

هذه الوحدة المقدسة بين شال الوادي وجنوبه ، ليست شيئا من صنع التاريخ ، ولكنها حقيقة خالدة من صنع الله ، وشعور أبدى بروابط الفكر والروح والآمال والآلام ، وحنين متصل إلى الحرية والقوة والمجد ، كما يعبر عن ذلك شاعر السودان ، لابل شاعر الوادي ، المرحوم التيجاني بشير ، أبلغ تعبير ، فيقول :

عادني اليوم من حديثك يا مـ ر رني ، وطوفت في ذكرى  
وهذا باسمك الفؤاد ، ولجت بساتين على الخواطر سكرى  
من أتى صخرة الوجود ففرا ها ، وأجرى منها الذي كان أجرى  
هو من صاغتنا على حرم النيل ل وشطآنه دعاء وشكرا  
إنما مصر والشقيق الآخ السو دان كانا الخافق النيل صدرا  
حفظا مجده القديم ، وشادا منه صيتا ، ورقعا منه ذكرنا  
كلنا أنكرنا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا  
ويصبر في قصيدة أخرى عن هذه الوحدة الوثيقة . . وعن منزلة مصر  
في أفئدة الشباب السوداني النيل ، فيقول :

مصر دين الشباب ، في الحضرة الرا فة والبدو ، من قرى وبقاع  
حبذا الموت في سبيلك يا مـ ر لنشء عن الحى دفاع  
وهذا الشعور الملتهب في نفس الشاعر بوحدة الوادى ، ألمه روائع  
الآيات في النيل ، نهرنا الخالد ، يقول من قصيدته « في بحراب النيل » :  
إن عبتنا فيك الجلال فلما نقض حق الديار عن محرابك  
أو نعمتنا بك الزمان فلم نبد ل بلاء المجدود في صون غايك  
ويشبه حبيبه بالنيل تشبها جيدا ، في قصيدته « أنت أم النيل ؟ » ،  
فيقول :

أنت يا فاتني أم النيل زخا را ؟ بنغمى كليكا من شبيه  
غفنا السحر من شواطئه الخفض ر . وغن الزمان من ماضي  
واذكركم سالفنا مجيدا على الده ر ، عزيزا على كرام بني  
ويركب الشاعر زورقا يسبح به في النيل ، فتتقاذنه الأمواج ، حتى  
تتشرف على الهلاك ، فيقول مخاطبا النيل :

رفقا بمن آواك إلهامه وصاغ في صدرك وحى الجبال  
آماله يا نبيل .. أحلامه شيا به الغض الوريث الغلال  
ويكرر ذلك فيتناجي النبل في بشر وحسب وأمل ، فيقول من قصيدته  
الزورق الأخضر :

الله في الزورق من غافل يا نبيل لم يظفر برمان  
شراعه الحب . ويجداه قلبان طفلان غريبان  
أحفظ صبيته ، وباركهما للحب يا نبيل وألحائي  
وهكذا كان يفرد التيجاني ، الشاعر المؤمن بوحدة الوادي ، والذي  
أذاب نفسه ألحانا ساحرة ، كان يبعث بها الحياة والأمل في قلوب المصريين  
والسودانيين على السواء .. وهذه إحدى خصائص شاعرية التيجاني ،  
ابن النيل الطموح ، وشاعر الوادي المفرد .

والتيجاني يمثل فكرة جديدة في الشعر السوداني الحديث ، فقد طفر  
الشعر في السودان على يديه من عهد الأناشيد العامة ، والمعارضات الأدبية  
للقدماء ، إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوج الفني ، وأصبح الشعر  
السوداني بفضل عبقريته ، تعبيرا واضحا متميزا جمليا ، عن البيئة والمجتمع  
والشعب ، وحياة الأمة وآمالها وآلامها ، ونورتها في سبيل الحرية والعزة  
والكرامة .. . وتلك خاصية ثانية ، لشاعرية الشاعر ، ومن ثم  
انتظم شعره النزعات الوطنية الحرة ، كما انتظم الكثير من أوصاف الطبيعة  
والاستغراق الذهني في مشاهداتها ، والنبتل الصوفي في عراياها ، كما في قصائده  
والمحطوم مدينة الشعر والجمال ، و د توقي في الصباح ، وتوق جزيرة  
مشهورة أمام الخرطوم ، و د من أغوار القلب ، وقد وصف فيها استقبال  
روحه للربيع وجماله الأبدى ، وتحدث فيها كذلك عن حبه وأحبابه .

وللنيحان شعر وجداني كثير . يمثل نزعات نفسه ، وخطبات قلبه ،  
وأعمق مشاعره وهو واجبه ، ويتمثل هذا الشعر الوجداني في غزله وحبه  
وفي أحاديثه عن نفسه وآلامه .

أما شعره في الغزل فتصوره قصائد كثيرة في ديوانه ، من أجملها : نعيم  
الحب ، ومن وراء النافذة ، و النائم المسحور ، و في الموحى ، التي  
يصف فيها نشوة الروحية بباعات لقاء في الظلام ، و القمر المجنون ،  
وقد تحدث فيها عن حبيبة له تسمى « قرا » ، أحبها وأحبته . ثم تزوجت  
قسرا سواء ، فدفع بها الحب إلى الجنون ، وقصيدته : جمال وقلوب .  
وهي رائعة حقا في تصوير مشاعر حب وراق . ويقول فيها :

وعبدتك يا جمال وصفنا لك من أنفاسنا هياما وحباً  
ووهبتنا لك الحياة ولججنا بنايها لعينيك قربي  
من ترى وزع المفاتن يا حسـ ن ، ومن ذا أوحى لنا أن نحبا  
من ترى وثق العرى بين مسحورين أسماهما جمالا وقلبا

وأما شعره عن نفسه فكثير متصل في الديوان : ومنه قصائده الجميلة  
« الخلوة » ، وقد وصف فيها عبقريته وهو يحفظ القرآن في المكتب ، والمعهد  
العلمي ، ويصور فيها حياته العلمية الأولى في معهد أم درمان . وبدء ظهور  
الشك في تفكيره ، و قلب ، وقد تحدث فيها عن قلبه ومنازعه وخطراته  
العميقة ، « وهوى وفقر » ، وقد تحدث فيها عن فقره وهواه وصنيع دنياه معه  
ويؤلم الشاعر ضياع عبقريته وأدبه في وطنه فينظم في ذلك قصيدته  
« الأدب الضائع » .

وفي قصيدته « إل » التي يصور فيها أحاديث نفسه ، يقول :  
 ويأمل من الجناح كم أمل تبنى ، وك في السماء تطلب ؟  
 تود مصر الزمان ، وهي لما يأمل منها الشباب مطلب  
 ويكافئه غنى مترف ، فينظم في ذلك قصيدته ( قلب من ذهب )  
 ويقول منها :

أينا يزحم الوجود جناحيه ، وتمشي الحياة بين خميره  
 في دنيا الفنون والوحى والإلهام من صدقه ومن مسجوره  
 وفي قصيدته « نفس » يصف نفسه الحرة الآية ، فيقول :  
 سيحانك اللهم نف من كلها عطف ولين  
 وتر من النسي المقدس من يقاها المرسلين  
 من قدس داجية الشعو ر ، وطهر واضحة الجبين  
 من كل سحر في الوجود د ، وساحر في العالمين  
 من مبط الروح العزيز ر ، وعنصر الجسم المهيمن  
 صيغت فسكانت حرة أبدا على من السنين  
 وتسود شعره الوجداني نزعة واضحة من القلق الفكري والروحي ،  
 مما يبدو واضحا في قصيدته « يؤلني شكى » ويقول فيها :  
 أشك يؤلني شكى ، وأجبت عن برد اليقين ، فيفني فيه مجهودي  
 أشك لأعن رضا مني ، ويقتلني شكى ، ويدل من وسواسه عودي  
 ويقول في مطلع قصيدته « حيرة » :

بين اثنتين أسر أم أبكى قيس اليقين وجذرة الشك ؟  
 وللتيجاني شعر وصفي ، من أروعه قصيدته « لجر فصحراء » وقصيدته  
 ( طفل ) التي وصف فيها قدرة الله الباهرة في خلق الإنسان . . . ومن أبدع  
 شعر الرثاء في شعر قصيدته الطويلة ( دمة على طفل ) .

ومن أظهر خصائص التيجاني في شعره ، نزعة الصوفية العميقة ، المشوبة بموسيقى غنائية راثمة . ويصف الشاعر حياته الصوفية الأولى في صباه ، في قصيدته ( الصبي العابد ) التي يقول فيها :

كنت بين الصبا نعمة بإيمان رضى . وأين عهد صبايا ؟  
فسلبت الهدى ، وعولجت في النور ، وقد كنت صادقاً في هدايا  
تاه من الصبا ، وضلت سنون . بعد في منطق كثير القضايا  
ومضى الشك باليقين ، فله فؤاد تأكلته الرزايا  
والشاعر في قصيدته ( الصوفي المذهب ) ، يؤمن عميق الإيمان . وحدة الوجود مذهبه وهداية السبيل نبراسه ، وفي أسرار الكون تفكيره ويقول منها :

الوجود الحق ما أو سع في النفس مداه  
والكون المحض ما أو ثق بالروح عراه  
كل ما في الكون يمشى في حناياه الإله  
هذه النملة في رقد نها رجوع صداه  
هو يحيا في حواشيه ها ، ونحيا في ثراه  
وهي إن أسلت الروح تلقته بدهاء  
لم تمت فيها حياة الله إن سكنت تراه

ويؤكد الشاعر نزعة إلى التصوف في قصيدته « قلب الفيلسوف » التي يقول في آخرها :

في موضع السر من دنياي متسع للحق ، أقتا برعاني وأرعاه  
هنا الحقيقة في جنتي ، هنا فيس من السموات في قلبي ، هنا الله

وللتيجاني نزعات فلسفية عميقة في شعره ، فهو يتخذ من يناييح الوحي طريقة إلى المعرفة ، ويؤمن بذهب الشك ، لأنه السبيل إلى الحقيقة ، ويرى في الدين دافعاً للبشرية نحو الخير والمثل العليا ، وأن المعركة الأبدية بين العلم والجهل متصلة ، ونهايتها من غير شك انتصار العلم ، كما يقول في قصيدته

و النقطة ، التي تحدث فيها عن أحرار الفكر ، وعن العقل الإنسانى وتطلعه إلى كشف المجهول من الحياة .

وبعد ، فإن شعر النيجانى يمثل عقلا نفذ إلى أعماق الوجود والحياة ، وثقافة واسعة استمدتها من اطلاعه على كتب التصوف والفلسفة ؛ كما يمثل شخصية أدبية مستقلة فى التفكير والتعبير ، وفى خصائص الشعرية والبيان ، وفى خيالات الشعر وأسلوبه ووحدة القصيدة فيه .

ولقد قرأ الشاعر طويلا فى مصادر الأدب العربى القديم والحديث على السواء ، قرأ للجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، كما قرأ لثوقى وحافظ ومطران ، وشكرى وأبى شادى ونابجى والصيرفى ، وعلى محمود طه والهمشبرى ، والعقاد ، وشعراء المهجر وسواهم .. ولكنه لم يقلد فى الشعر أحدا ، ولم يمارض فى قصائده شاعرا قديما أو حديثا ، وذلك يتم عن مديسكات شعرية مطبوعة ، متصلة بينايبس الإلهام الصادق فى نفسه .

ولقد مهد النيجانى بشعره لمدرسة جديدة فى الشعر السودانى المعاصر ، يمثلها الفيتورى ، وتاج السر ، وجبلى ، وسوام من الشعراء الشباب ، من أبناء السودان الحر العزيز .

وفى عمر الزهور ، وإشراقة الشباب ، مات شاعرنا عام ١٩٣٧ ، عن خمسة وعشرين عاما ، ولم يترك وراءه سوى مقالات قصيرة فى الأدب والنقد ، كانت تنشرها له المجلات الأدبية فى مصر والسودان ، ولم تجمع بعد فى كتاب ؛ وغير ديوانه الصغير ، لإشراقة ، الذى يحتوى على ست وستين قصيدة ، تمثل أروع الإلهامات الشعرية ، وأجل الآيات المعبرة عن شاعرية موهوبة ، لم يعرف لها مثل فى تاريخ الشعر السودانى الحديث . وصنعت إلى الأبد هذه القيثارة الساحرة ، بعد أن عزفت الروائع من شعر المجهد والعزة والحربة .



### النقد المعاصر

ثورة النقد هي دائما التي تثير السبيل أمام النهضة الأدبية ، والنقد الحر  
الزehir هو الدعاة الادب الرفيع ، وفي بدء نهضتنا الادبية ، كان النقد يعاون  
الادب والادب يقضى النقد . فلم يسل رواد الشعر من أفلام النقد ، وأصاب  
شوقيا وحافظا ومطران وأبا شادى وأحد محرم وعبد الرحمن شكرى  
ما أصابهم من سخط النقد وثورتهم ، ومع ذلك لم يستخط هؤلاء الاعلام  
ولم يكتتبوا ولم يشوروا ، وإنما جازلوا رفع النهضة الشعرية إلى الامام بقوة  
وعزم وتصميم .

وكان العقاد والمازنى من تاروا على مذهب شوقى فى الشعر ، واشتدت  
الخصومة الادبية بين الراجى والعقاد وبين رمضى مفتاح والعقاد كذلك ،  
وظلت معارك النقد توجع الشعلة التي انتقلت إلى الادباء المصريين جيلا بعد  
جيل ، ولا تنس زكى مبارك والمعارك الادبية التي اثارها ، والخصومات  
الادبية بين احمد امين وزكى مبارك ، وما ولجه إلى جميع الشعراء المعاصرين  
ومن بينهم على محمود طه وناجى وأبو شادى والاسمر ومحمود حسن اسماعيل  
ومحمود غنيم ومحمد عبد الغنى حسن والصيرفى من نقد

وهذه الخصومات الادبية التي يحدث فيها الخلاف بين الادباء . ويحكم فيها  
النقاد متصفين أو متحيزين ، كانت مواسم خصبة للادب تدفع الشباب إلى  
متابعة قضايا الادب ومشكلاته ودراسه ، وإلى الاهتمام به وإلى موالاة  
السير فى مواكب الادب التي هي من طلائع التفكير الحر دائما .

وأحكام السحرى على شعرائنا المعاصرين ، وهى من الدقة والقوة والعمق بمنزلة رفيعة ، كانت ذات أثر فى توجيه حركة النقد الأدبى فى العشر السنوات الأخيرة من تاريخنا الأدبى . وعند عامين احتدمت الخصومة بين الأدباء الشباب والأدباء الشيوخ وفى مقدمتهم طه حسين والعقاد والزيات ، وكثر الحديث عن محنة الأدب وأسبابها ، ولحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وذكرا الجاوى ، صوت مدو فى هذه المعركة التى لا تزال فى أعقابها حتى اليوم .

إننا لانزعم أننا وصلنا إلى كل غاياتنا فى الميدان الأدبى ، أو أننا بلغنا الذروة من النهضة الأدبية ، أو أن الشيوخ من الأدباء قد جاءوا لنا بكل جديد فى الأدب والنقد . . . ولانزعم كذلك أن صوت الشباب لا يستند إلا إلى ثورة العاطفة وحدها .

ولكننا نؤمن أننا لا تزال فى أول طريق النهضة التى نريد أن نبلغها فى الأدب ، وأن شيوخ الأدب فى مصر لم يكونوا سوى رواد يحاولون اقتحام الميدان ، فنهم من وقف على الباب ، ومنهم من وقف قبل أن يصل إليه ومنهم من دخل منه مهورا مثقل الخطأ كليل الأعصاب ، أما الشباب فقد دخلوا وراء الشيوخ ، ولكنهم نظروا إلى ما أمامهم ووراءهم من أسرار ، ولا يزالون ينظرون وفى أنفسهم حيرة . وعلى شفاههم لفحة . وقد لمسنا ظاهرة غريبة فى جونا الأدبى هى سخرية الأدباء وتعاليمهم وكبرياتهم بل غرورهم ، وخاصة طبقة الشباب الذين يشعرون ويستخطون على كلمة النقد التى تقال ، وهذه أول بوادر الضعف الذى نرجو أن تبراأمنه نهضتنا الأدبية الحاضرة . فالميدان الأدبى تعاون وإنصاف وكفاح بين الآباء والشعراء والنقاد ، وهذه الأخلاق هى وحدها التى تنهض بالأدب ، وترفع منزلته فى مجتمع الحياة وعاديتها .

والمعول في كفاحنا الأدبي على الناقد الحر الحصيف ، وعلى تعاون شق  
حيثات الأدب في خلق أدب حر ، يعمل على توجيه القباب نحو مثلنا العليا  
وأهدافنا السامية .

#### أديب من الحجاز

الأدب التمثيلي فن جديد نشأ في العربية في العصر الحديث ، بتأثير بواعث  
اجتماعية وأدبية ، واتصالنا بالأدب الغربي والفكر الأوروبي ، وقد عرف  
اليونان والرومان والقديما الأدب التمثيلي ، وكتبوا روائع التمثيليات ،  
ونبغ منهم كثير من كتاب التمثيلية الخالدين ، وعندهم عرف فن التمثيلية  
والمسرحية في أوروبا في بدء عصر النهضة ، وأصبح له مكائده وخطرة في  
الأدب العالمية المعاصرة .

ومن أقدم ما عرف المسرح في مصر من التمثيليات رواية عابدة التي  
ترجمت إلى العربية ، ومثلت في حفلة افتتاح قناة السويس في الأوبرا  
المصرية في عهد إسماعيل .

والأدب التمثيلي اليوم يغذي المسرح والسنيما في البلاد العربية بالعديد  
من الإنتاج ، ويؤثر في عقول الناس وأفكارهم تأثيرا كبيرا ، ومن كتاب  
التمثيلية لقيف من أبناء العربية نبغوا فيها ، ومرنوا على كتابة فصولها  
وحوارها .

والجامدون في الأدب يضيئون ذراعا حتى اليوم بفن التمثيلية والقصة ،  
ويختبرونهما كغيرا بقرائنا الأدبي القديم ، ذي العناصر الفنية الواضحة  
التمثيلية .

ولمهرجيات شوقي وأحمد زكي أبي شادي وعزير أباطة الشعرية  
مكائدها في أدبنا التمثيل الحديث ، وكان شوقي يتخذ من التاريخ مادة

مسرحياته ، وتابعه في ذلك شاعرنا عزيز أباظة ، أما أبو شادى فكان يجعل من التاريخ والمجتمع مادة وموضوع ما يكتب من مسرحيات ، ومنها : الآلهة ، وأردشير وإحسان ، وبنت الصحراء ، وأختاتون ، والزباء ، وسواها من عديد التمثيليات التى سبق بها أبو شادى أدهاء العروبة ، وكان له بها شرف وضع الأساس فى الدراما والأوبرا العربية ، وقد والى أبو شادى بعد هجرته إلى أمريكا عام ١٩٤٦ تأليف كثير من التمثيليات ، التى نشر بعضها فى كتاب « من نافذة التاريخ » الذى نشرته المكتطف عمام ١٩٥٢ فى جزئين ، ولا تزال بقية أجزائه مخطوطة حتى اليوم . . ومن أشهر كتاب التمثيلية اليوم توفيق الحكيم .

وأغلب التمثيليات التى تكتب اليوم تتخذ من الموضوعات الثقافية الفارغة مادة لها ، وتغفل جميع مشكلاتنا الاجتماعية والقومية والعقلية ، فلا تتحدث فيها ، وتتخذ من اهتمام الكثير من الطبقات المحرومة الجاهلة بالموضوع الجنس ذريعة لها إلى ما تصطنعه من مذهب فى الكتابة التمثيلية ، وفيما يحرص عليه من إثارة الشهوات ، وتبادل قبيلات الحب والميام ، وقد أخذ أبو شادى منذ حين يعرض تاريخنا الفكرى الجيد ، وحياة فلاسفتنا ومفكرينا ، فى روايات من تمثيلياته البارة ، التى تعد خطوة تقديمية لا مثيل لها فى أدبنا التمثيل المعاصر .

وهذه المسرحية الرمزية التى تقتصر على فصل واحد ، وتتوالى مشاهدتها فى قوة وروعة ، تستجيب لنداء الحياة ، وتمتقت ترف الفن للفن ، مؤمنة بمذهب الفن للحياة ، ميثرة بأفكار تقديمية جديدة ماهدة فى حياة العروبة والعرب الميامين ، وكاتبها يلون أشخاص المسرحية بألوان عجيبة ، ويحافظ على هذه الألوان من بدء مسرحيته إلى نهايتها ، ويجعل لكل منهم شخصية

متميزة ، وافكارا خاصة ، وسمة يعرف بها وحده دون غيره من الناس ، وتدور مشاهد المسرحية في قاعة ضخمة يدور فيها اجتياح حافل ، يشهده كثيرون من يمثلون أفكارا متناقضة ، بعضها يؤيد الرجعية والجنود ، وبعضها ينادى بالتقدم والعزة والكرامة للناس والمجتمع والوطن ، ويكثر بينهم الحوار والجدل والنقاش والخصومة ، إلى نهاية المسرحية بأحداثها ، ومشاهدها المثيرة المؤثرة . وفي المسرحية أشخاص يمثلون أطراف الشخصيات ، فهذا سالم يقف مع البورجوازيين مع حرص شديد على السجج ، وتأيبس بملاتسكاس ؛ وهذا ميمون يسمع ولا جواب له على ما يسمع إلا : موافقون . موافقون . يقف مع المادية الطاغية الممثلة في شخوصها ، وهذا فضل يدعو إلى المبادئ . والقيم الجسدية في ثقة وإيمان وأمل ، إلى غير ذلك من الأشخاص ومواقفهم الجميلة الباهرة .

والاستاذ عبد الله عبد الجبار من كتابنا التقدميين ، المؤمنين بالتطور ، وبرجوب مسايرة المجتمع والناس لأفكار الحضارة ، وبالواقعية الحلوة على الأدب ، وهو يبشر بمثالية جديدة في مسرحياته الجميلة ، التي أصدر منها من قبل : « لأمم سحتوت » ، و « أمي » .. وهذه ثلاثة مسرحياته التي نتمنى أن نقرأها ونفهمها .

### شاعر من الكويت

ديوان «الاشواق» بما يحتوي عليه من قصائد وجدانية وروائية وقومية ووطنية - من أرواح الدواوين التي نظمها الشاعر محمود شوق الأيوبي - بل إنه من أجمل ما ظهر في الشعر الكويتي المعاصر من آثار . وهو شاهد على شاعرية الأيوبي المتدفقة الثرة العميقة الجذور والأسباب ، التي تمد الشاعر بالإلهام والخيال والصور الشعرية والتجربة الفنية .

وفي الديوان قصائد عديدة تمثل التطور في الشعر الكويتي المعاصر ، والنزعة الحرة في الفكر العربي في الكويت ، ومنها : في موكب الحرية ، والبدوي ، وأمواج الفجر ، والثأري المحطم ، وأين النشيد ، ووراء الحق ، والأفان الحزين التي يصف فيها رحلاته وهجراته وحياته مدة طويلة شقيا بآلام الغربة ؛ وبأبني وطني ؛ واليتامى السوداء . وهذه القصائد وما يماثلها من شعره في الديوان صورة قوية واضحة للأيوبي الشاعر تمثله أصدق التمثيل ؛ تمثله في اغترابه وهجراته وتشريدته وبمده عن وطنه عشرين عاما ، وتمثله في ثوراته العسكرية والوطنية الحرة الجريئة ؛ وتمثله كذلك حين يقف أمام الطبيعة والحضارة في بلاد العرب يتأملها ، ويستوحى الخيال والشاعرية والإبداع .

ولم يقف الأيوبي عند غرض واحد يقصر عليه نظمه وشعره ، وإنما جال في كل فن ، وقال في كل غرض : من وصف ونظر ورثاء ، وحكمة وسخرية ونقد واجتماع ، ومن شعر وجداني ، وقوى ، وإنساني ؛ حيث تسود شعره النزعة القومية وروح التحرر من الأغلال والقيود والصوفية العميقة الحائلة .

و نحن لا نقول إن شعر الديوان مثل كامل للشعر العربي المتحرر ، وإنما نقول إنه مثل كامل للتحرر في الشعر الكويتي المعاصر ، مع تأثر بالبيئة ، و مجازاة للمصر و وصف لمشاهد الحياة في الكويت العربية ، و قصيدة « البنابيع السوداء » جديدة كل الجدة في التحدث عن الذهب الأسود و بنابيع البترول الغنية في الكويت ، و هي لوحة فنية مستمدة من واقع الحياة .

و رابطة الأدب الحديث - و هي تختفي يا نتاج الشعراء العرب المعاصرين و تقدرهم حق قدرهم ، و تضع يدها في أيديهم في عزم وقوة و مشاركة و تصميم على الجهاد من أجل الفكر و الثقافة ، و في سبيل التجديد و التحرر في الشعر تحي شاعر الكويت محمود شوقي الأيوبي بحية الإخاء و التقدير و الحب و الأمل ، و تنهت من أعماق قلبها بحية هذا الإنتاج الأدبي الجليل الرائع ، تنهى الأدياء و الأدب العربي بظهور هذا الديوان الجديد ، الذي نرجو له كل تقدير و ذبوع في العالم العربي ، و في كل مكان ؛ و نتننى أن يحتل الأيوبي مكانه اللائق به في الكويت العزيزة الشقيقة .

#### شاعرة من مصر

- ٩ -

كانت تقيم الشاعرة المصرية المهاجرة صفية أحمد زكي أبو شادي في واشنطن ، مع والدها الشاعر المصري الكبير الدكتور أحمد زكي أبو شادي صاحب الآثار الأدبية العديدة المرموقة . و قد تلقت ثنائها في مصر قبل هجرة والدها إلى أمريكا في ١٦ إبريل

عام ١٩٤٦ ، هذه الهجرة التي كانت أكبر سفارة أدبية وفكرية لمصر في عصرنا الراهن ، والتي كان من أظرف أسبابها آراء أبي شادي النقدية الرائدة في الأدب والفكر والاجتماع والسياسة ، التي دُعر منها حكام مصر في ذلك العهد البائد البغيض ، ثم ما كان يسود جو مصر الفكري من خندق للحريات . واضطهاد للفكر ، ومحاربة لدعاة النهضة والتقدم والتجديد والإصلاح ، وقد كان القصر الملكي يهتز رعبا من آراء أبي شادي التي كان ييها في أنصاره وحوارييه ، وكانت الأحزاب البائدة ترتعد فرقا من تنديد أبي شادي بدعاة الرجعية السياسية المقيتة التي كانت تمثلها هذه الأحزاب ، وكان الإقطاعيون يقابلون دعوة أبي شادي إلى العدالة الاجتماعية وتوزيع الأرض على الفلاحين وإلغاء الألقاب بالنقمة واليغضاء . . وكان من البدهي أن تتأثر حياة الشاعر بكل ذلك تأثرا كبيرا ، وأن يلقى من الاضطهاد والعنت في بيئته ما يشوه بالعصبة أدلى القوة ، وأن تنذر الحكومة بالحرمان إذا فكر أو تحدث أو كتب أو نادى برأى . . وفي هذه الحقبة توفيت زوجته الحنون ، وبدأ أمام عينه الظلام القائم المتجمع من كل أفق ، فهاجر الشاعر ، ومعه أبناؤه ، وه صافية ، شاعرتنا وصاحبة ديوان الأغنية الخالدة من بينهم ، وسقطوا الرحال في نيويورك حينما من الزمان .

و ( صافية ) شاعرتنا تنحدر من بيت عريق في الأدب والشعر والتبل ، فولدها شاعر مرموق ، وجدها محمد أبو شادي بك ، كان خطيبا مفوها وسياسيا ذائع الصمرة . وأديبا وكاتبا وشاعرا بليغا ، وقد حمل لواء الجهاد مع سعد زغلول حتى توفي عام ١٩٢٥ ، وجدها لايها كذلك



كانت شاعرة، وخال والدها كذلك شاعر مشهور . هو المرحوم مصطفى نجيب ، الذي توفي بعد مشرق القرن العشرين بقليل ؛ ولاشك أن هذا التراث الفكري والأدبي قد انتقل إلى ذهن الشاعرة ، وتردد صدها في عقلها وروحها ، منذ أن كانت طفلة صغيرة .

وعنصر الخيال الطلق البعيد الذي يمثل هذا الديوان ، والذي هو من أهم سمات شاعرية الشاعرة ، له كذلك ينبع من معين هذه الثقافة الادبية الغربية ، وخاصة الإنجليزية ، التي نشقت بها الشاعرة من طفولتها على يدي والدتها . وقد كانت تنتمي إلى عنصر الانجليزى عريق ، ثم في المدارس التي التحقت بها في الاسكندرية حيث كانت تقيم مع والدها قبل هجرته إلى أمريكا ، وهو أستاذ في كلية طب جامعة الاسكندرية ، ووكيلها .

وجانب كبير من قصائد هذا الديوان قد كتبت الشاعرة في مصر قبل الهجرة ، والجانب الآخر كتبتته وهي مهاجرة في أمريكا . ومن ثم فإن هذه القصائد الفنية تمثل كثيرا من خصائص الثقافات الادبية العالمية العريقة ، مما يجعل لهذا الديوان منزلة الخطيرة في إنتاجنا الأدبي المعاصر ، لأنه صورة حية من هذه الثقافات الادبية المتنوعة التي تلقنها الشاعرة في بيئات عديدة بعضها شرق وبعضها غربي . ومن النتائج المترتبة على ذلك ما يمتاز به الديوان من انطلاق الخيال ، وتحرر الفكر ، وسعة أفق العقل الادبي ، والصوفية الخاملة العميقة الناقذة إلى أحماق الحياة والطبيعة والوجود ، ثم امتزاج الروح الشرقي بالروح الاوربي .

والديوان كله قصائد من الشعر المنشور . وهذا اللون من الشعر أكثر منه جبران وبى وغيرهما من شعرائنا وكتابتنا المعاصرين ، وأساسه العناية بالمعركة والخيال والروح والعاطفة والموسيقى ، دون النظر إلى القافية ، ودرن التفات إلى أوزان الشعر وبحوره . . . . . والنقاد العرب يقولون من هذا اللون من الشعر والشعر مواقف مختلفة .

ففریق يرون أن الشعر هو الكلام الفنى الجميل ، الخلق فى آفاق الخيال ، والصواب فى أعماق الوجدان ، والممثل لخلجات الشعور ، ونبضات القلوب ، ومن ثم فهم ينسحبون إلى أن كل كلام - يغلب عليه التألق والجمال والخيال ومحاطب العاطفة والوجدان والشعور - هو شعر ؛ ويستشهدون على ذلك بكلام حسان بن ثابت شاعر النبوة ، حين سمع من ابنه وصفاً أنيقاً منه . را لنحلة سمعته ، فقال : شعر ورب السكينة . ولما قال بشار أبياته المشهورة فى الشورى وسداد مشاورة الأصدقاء ، أعجب بها الناس ، فسئل بشار عن ذلك ، فمال إيمانه بحكمة الشورى بكلام بليغ منشور . فقال النقاد أنت فى ترك أشعر منك فى شعرك . وفى العصر الحديث ذهب بعض النقاد إلى حد كل كلام منشور بليغ يغلب عليه الخيال شعراً ، وإن لم يشتمل على وزن ولا قافية ، وأكثر من هذا اللون من الشعر جبران وسواه .

وفريق آخرون يقيّدون الشعر بالوزن ، وسواهم يقيّدونه بالقافية والوزن جميعاً ، وهو رأى الكثير من النقاد العرب القدامى .

ومهما كان فإن حاجتنا إلى التجديد الأدبى ، وإيماننا بوجود مساهمة الأدب للحياة ، تقتضى منا أن نؤمن بأن كل إنتاج فنى بليغ موهوب لا يتناقى مع الشعر الكلاسيكى المقيد بقيود الوزن والقافية والموسيقى ، بأية حال من الأحوال .

ويمثل هذا الديوان صورة أنيقة من نظرة الشاعر إلى الطبيعة والحياة والجمال  
الإنساني الثرى بالألوان ، ويتحدث عن عواطف الشاعر وآمالها ، وأحزانها  
ومسراتها ، حديثاً حقيقياً خصباً مؤثراً . . . فينبينا نجدها تقول في قصيدتها  
« ياأس » : ( أفضى الأيام ثمة في بيده من الظلام ، والطرق المتضاربة  
كلها أعشاب شائكة ، فإذا حسبت الأمل أمامي يوسى إلى ، وجدته  
السراب القامى بخدعي ) ، وتصور كفاحها الشاق الطويل وهي تناضل الحياة  
في قصيدتها ( الزورق الصغير ) ، وفي قصيدتها الأخرى ( وسط المحيط ) ،  
وتردد ( الأغنية الخالدة ) في صدى مدو ، وفي حزن عميق . . . إذا هي تناجي  
الأمل والإيمان في قصيدتها ( في عينيك الدموع ) ، وفي قصيدتها الأخيرة  
( قيم تفكرين ؟ ) وتندمج في الطبيعة فرحة شاذية في قصائد عديدة من  
الديوان مشرقة بالأصالة والطلاقة الفنية والتحرر والموهبة ، وتصف مشاهد  
فلكامية وصورة ضاحكة من عمل المنزل وجهاد الفتاة فيه ، وتتحدث عن  
المثل العليا للحياة ، وعن آثار من التفكير الراجح في مستقبل الإنسان  
على الأرض . . . إل غير ذلك من الألحان العذاب ، والأغاني الحلوة ،  
والأناشيد الجميلة المؤثرة ، ذات الطابع الفني المتميز .

والرمزية بظلالها وألوانها الفنية ، المنطلقة في سبجات الخيال ، وأحلام  
المفكر ، ومشاهد الوجود ، وأعماق الطبيعة ، وأسرار النفس ، غالباً على  
هذا الديوان ، المشبع بفهم حقيقى للادب ، وإيمان عميق بالتجديد .

ويتميز حديث الشاعرة في الديوان بالصدق والبساطة والجمال . . ولا شك  
أن هذه العناصر هي أهم سمات الأدب الجديد الذي نؤمن به وتدعو إليه .  
ومن ثم فإنه يمكننا أن نقول : إن الديوان - بما يشتمل عليه من آثار  
وسيات فنية متعددة - جديد كل الجدة ، فليس فيه تقليد لمذهب ، ولا لشاعر  
ولا لشعر بعينه . . ولذلك تزداد أهميته بالنسبة لنا - نحن الأدباء والشعراء  
والنقاد إلى حد بعيد .

والأدب النسوي المعاصر في مصر والبلاد العربية قليل ضئيل بالنسبة  
للكآثار الأدبية الحديثة ، ومن أظهر الشاعرات المعاصرات : فدوى طوقان  
ونازك الملائكة ، وجيلة العللايل وجيلة رعدا ، ومن أظهر أدبياتنا المعاصرات  
هي وبت الشاطي . والغداوي وعدد الكيالي .  
ولا شك أن الأدب النسوي المعاصر ، وخاصة الشعر ، سيكسب غنما  
كبيرا ، حينما يضاف إلى مداريه المتألفة شاعرتنا المصرية المهاجرة و صفية  
أحمد زكي أبو شادي ، صاحبة هذا الديوان الجديد و الأغنية الخالدة ،  
التي تعيش للأدب ، ونحيا بالأدب ، وإن لم تتخذ مهنة وتجارة ، ولم تمش  
به الدعاية بين الناس .

ولقد امتلكتني نشوة عجيبة عندما وصلني الديوان بالطائرة من المرحوم والد  
شاعرتنا المصرية ، وقرأت بعض قصائده . . ومن ثم رأيت أن يطبع  
الديوان على نفقتي الخاصة ، وبرعاية و رابطة الأدب الحديث ، التي تجعل  
من صميم رسالتها الكشف عن المواهب ، وتشجيع الموهوبين ، ونشر آثار  
الشعراء والأدباء المعاصرين ..

### عمر ابن أبي ربيعة

شاعر الغزل القصصى

عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز الكبير فى القرن الأول للهجرة ، أطرف شخصية أدبية فى الأدب العربى القديم ، وحياته وشعره صورة فنية متميزة للحياة العربية فى بيئة الحجاز فى أزهى عصوره الإسلامية .

وما أجل الحديث عن عمر وأعبده ، عمر شاعر الغزل القصصى ، وزعيم مدرسة الغزليين فى هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قریش ، والمذى عاش لابهو ولا يمدح وإنما ينظم فى فنه الشعرى الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقا فى الشعر العربى ، الذى كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين فى القديم والحديث اهتماما لم ينله الكثير من الشعراء الأتدمين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضع عناية الأدباء واهتمام القراء ، فإن الحديث عن عمر من شاعر أدب حجازى معاصر يجعل لبحثه أهمية كبيرة فوق أهمية الموضوع نفسه .

ومن ثم فرحت فرحا كثيرا عندما دهرت الشاعر الحجازى المجدد الأستاذ إبراهيم هاشم الفلال ليحاضرنا ، عن عمر ، فى حلقات رابطة الأدب الحديث فى القاهرة ، وفرحت أكثر من فرحى الأول عندما قدم لى الكتاب فى آخر مراحل طبعه لاسجل ماوجه لى بحثه من نقد ليله إلفاته فى ندوة الرابطة الأدبية ، ولقى لأضغ بحث شاعرنا الفلال عن شاعر الحجاز الخالد فى صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتتب وهو أعرف الناس ببيئة الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبفسيية شاعر كان يعيش فى هذه البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلاّح الشاعر في صدر كتابه يصور منهجه في كتابه للقراء : « سجد (١) أبنا القرى - العربي المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك في محاضرة القيت في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ، وسوف تجد في تعاضيف الحديث عن هذا الشاعر المجازي تطورات المجتمع في فترة من تاريخ موطننا — المجاز — الذي قام بنشر الدعوة الإسلامية ، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع المجازي ، ولعلك تجد شبا بين تطوره في ذلك العهد وتطوره في العهد الحاضر ، ولعلك أيضا تدس كيف استطاعت العبقرية المجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور ، فتسهم في بناء الحضارة من الناحية الفنية ، ومن الناحية الفقهية ، وكيف ترك تفوق آباءك المجازيين القى في اللغة والغناء والموسيقى وابتكارهم في هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً عالياً ما زال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور » .

ولتفت الفلاّح الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر ، فيقول بعد قليل من كلامه الأول : « ولعلك واجد في محاضرتي شيئاً لم تجده فيما قرأته عن عمر في كل ما كتب عنه (١) » .

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه ، والأسباب المختلفة التي أدت لظهور موجة الفناء والمرح في المجاز في عصر عمر . من سياسية واجتماعية وسوى ذلك ، ثم تحدث عن عبيرة عمر وأسرته ، وعن مولده ونشأته ، بيد أن المؤلف يوجز إيجازاً شديداً في حديثه عن نشأة عمر ، وما كان أجراء وأن يطيل كل الإطالة ، وأن يفيدنا الفائدة التي لا تتركب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلاّح في جملته على البحث وفي ذكائه والمعبية . ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه ، وانتقاله إلى مكة ، ويدفع عن عمر ما يلصقه به

(١) ص ٨ وما بعدها .

(١) ص ١٢ .

الجاهلون من الكتاب ، فيذكر لنا أن عمر قد عرف لنفسه مكانتها ، فلم يتبدل في شعره ، ولم يرنا لحفا في الكثرة الكثيرة مما نظم (١) . . . وينتهي المؤلف الشاعر الفلالي من هذه الجوانب كلها ، ليبتدى حديثاً عديداً جريلاً عن شعر عمر ، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان « مذكرات يومية يسجل فيها حياته » (٢) الخاصة ، وما أطرف الجوانب الفاضلة التي كشف عنها الفلالي في كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراءه النقاد فيه ، القدامى والمحدثين منهم ، ومكانته في الشعر الحجازي ، وحكمه الكثيرة في شعره . ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات ؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات . ومع ذلك فإن حديث الفلالي عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الموقف والظروف التي كتب تأثيرها محاضراته . ولكنني مع هذا الإيجاز الشديد الذي لجأ إليه المؤلف ، أعتقد أن قارىء هذا الكتاب الصغير الحجم ، يخرج بصورة عن شخصية عمر لا يخرج بها حينما يقرأ كل ما كتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته . وهذا آراء متعددة في الكتاب لها سمتا من الطرافة وروعة التصوير . ومع ذلك فإنني أزعم أن الفلالي لم يفرغ بعد من عمر ، وأن عليه واجباً أدبياً كبيراً لقراءتنا الخالد من الأدب العربي ، وهو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره ، عندما تسمح له أحواله الأدبية والفكرية بذلك . لأنني أمتنى الفلالي بدراسته ، وأمتنى الأدب العربي بهذا الكتاب الصغير الحجم ، الكبير في طرافته وروعته وقيمته .

(١) ص ٤٨

(٢) ص ٥٢

انہی کتاب



## مخبريت

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
المعجزة الخالدة	٤
الاسلام وأصول العدالة	٩
ماضى الاسلام	١٤
المسألة وروح التدين	٣٢
من حديث الاسلام	٣٠
هذه هي العقيدة الصادقة	٣٥
دين الله	٤٧
الدين والاصلاح	٨٠
البلاغة والتجديد	٨٢
التجديد في الادب الحديث	٨٦
البلاغة الادبية	٩٢
الخطبة الشاعر	٩٥
مؤرخ الادب الاندلسي	١٠٣
التيجاني بشير	١٠٤
النقد المعاصر	١١١
أديب من الحجاز	١١٣
شاعر من الكويت	١١٦
شاعرة من مصر	١١٧
شاعر الغزل القصص	١٢٣

ظهر حديثا للؤلؤ :

- ١ - قصة الأدب في مصر
- ٢ - قصة الأدب في الأندلس
- ٣ -- فصول في الأدب

تحت الطبع للؤلؤ كتاب :

نداء الحياة